رواية

دَلِيلَة

محبوبة محمد سلامة

دار البشير

دَانِيْلَةُ

الطبعة الأولى
1440 هـ / 2019 م

اسم الكتـــاب: دَلِيْلَةُ
المـــؤلـــف: محبوبة محمد سلامة
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 240 صفحة
عدد المـــلازم: 15 ملزمة
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 8735 / 2019
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 639 - 8 :ISBN

التوزيع والنشر:

دار البشير للثقافة والعلوم

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E-mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

©copyrights

جميع الحقوق محفوظة

دار البشير للثقافة والعلوم

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

محبوبة محمد سلامة

دَلِيْلَةُ

روايــة

دار البشير
للثقافة والعلوم

لا إهداء..

كل جملة، كلمة، حرف.. يحمل معنى،
وكل معنى يدري أين سيذهب داخل نفس قارئه،
وكيف سيُحيي، وماذا سيُخرج؛
إذًا.. لا إهداء،
لأن المعاني لا تُهدى.. المعاني تُزرع!

محبوبة محمد سلامة

دار البشير
للثقافة والعلوم

تحرّكت بتخلخلٍ.. متقطعة الأنفاس ومع ذلك تأبى السكون! تتخبّط حناياها بينَ بينٍ، تتلقفها رياح الاضطراب وتؤنس وحدتها تلك الساعات بغريبِ أفكارٍ وأفعال؛ فتُرسل نظرها إلى النافذة حينًا، وأحيانًا إلى التلفاز، تتابع بتقطعٍ ساعة الحائط مرة ثم تتابعها باتصالٍ مرات.

تهمس لنفسها «بقيت ساعات.. أجل بقيت ساعات» فتبثّها بعض السُكات وتغرقها بجميل الثبات، ثم لا تلبث أن تندفع إلى خزانة ثيابها؛ تفتح أركَانها، تخرج حشاياها وتتلمس خباياها، تُسدل عليها بعضًا مما حواها. وقفت أمام المرآة وقد أسبغت عليها من فضل خزانتها الكثير، تتحرك بثقلٍ عظيم؛ فما تكدّس على جسدها ليس بقليلٍ!

وبالرغمِ من أنها في منتصف فصل الربيع إلا أنها لم تجد أيّ بأس أبدًا من ارتداء كلّ هذه الملابس بل واحتضانها عليها وتمريرها على وجهها ويديها، تَجلس باستمتاعٍ وقد فتحت الراديو بجانبها تتابعه بأسماعها وتراقب التلفاز بنظرها، تعلو وجهها ابتسامة اطمئنان

وتغشى أركانها علامات السكينة والأمان، وكل جوارحها عن أفكارها مشغول.

لا تلتفت أبدًا لما ينقله التلفاز من أحزانٍ بمشهدِ الحِدَاد السنوي في الذكرى العاشرة لِغرق أم وابنها ذي الخمس سنوات بشاطئ الغرام والمذيعة تحكي عن تلك الليلة التي حملت الأحزان للمصريين جميعًا.. ولو أنها انتبهت؛ لذرفت من أجل هذا الدمع!

ولا تُعطي إنصاتًا كذلك للطُرفِ الخفيفة التي تُلقيها مذيعة الراديو عن القطّ الذي صعد أعلى شجرة ليأكل عُصفورًا.. ولو أنها انتبهت؛ لأفاضت على السكون حولها بعضًا من الضحك!

يتلبسها الصمت وبصرها يسيح في مراقبة عقارب الساعة وهتافها لقلبها مطمئنةً «بقي الكثير»..

هنالك سمعت ما أجفلها عن نفسها بل أجفل نفسها عنها وهي ترى باب المنزل يُفتح ويقف على عتبته رجلٌ في خلقته قوة وشدة، يترقرق على وجهه ماء الجمال ويرتسم على مُحيّاه آية من الإجلال، يشي ملبسه الذي وضع به مفتاحه بالأناقةِ، ينظر إليها بتعجبٍ وهو يراها قد فزعت إلى ما حولها هامسة باسمه «غالِب»!

تُغلق التلفاز وتُسكت الراديو ثم ما تنفكّ تخلع عنها ألبستها بفزعٍ.. الرداء وراء الرداء حتى تسقطهم عنها، لكنه أوقف يدها قبل أن تفكّ فرطَ آخرهم وضمها إلى صدره غير عابئ بهمسها المُستنكّر وتخلخل جسدها.

مرّت دقيقة ثم أبعدها عنه ووقف يرقُب وجهها الصغير ذا الحسن، لطيف التكوين، فساح به تيهًا وكأنما لم تُفتّح عيناه يومًا على أتمّ منها جمالًا، وهي تنظر أرضًا بين يديه تكاد توقف النفس منها حتى لا يخرجه شئ عن صمته فتسمع ما لا تطيق.. أو يطلب ما لا تطيق.. أو يحدث ما لا تطيق...

لكنه تكلّم بصوتٍ أقرب إلى الهَمسِ وهو يقرّب شفتيه من أذنها:

- «وِصال»...

اضطربت لسماعِ اسمها المهموس به وكيفية نطقه، سكت هو لحظات ووجهه مازال يلمس وجهها ثم أكمل:

- لم أستطع الانتظار أكثر؛ فقررتُ الرجوع باكرًا لأخبرك.. مبارك.

غلبتها الكلمات وغشيها الوجوم وهي تتلقّف بين يديها ورقة منه؛ فتحتها والنفَس منها يهرب، قرأتها مرارًا لكن كلماتها لم تختلف، كل مرّة تحمِل نفس الأحرف القاسية، نظَرتْ إلى «غالِب» ببعض ألم وغصّة تملأ جوفها بطعم الوهن تستصرخه تكذيبًا؛ لكنه مدّ يده إلى بطنها وتلمّسها بقليلِ حذرٍ وكثير إجلال، ثم قال مُتأثرًا وقد اشتدّ الدمع في عينه:

- ابني هذا سيكون له شأن عظيم يا «وِصال».

لم تُجبه، نظر إليها مُستنكرًا صمتها؛ فحرّكت رأسها صعودًا ونزولًا مؤكدةً وقلبها يدبُّ بقوةٍ صارخًا بحقيقةِ شعورها تجاه هذا الحمل وما تنتوي له!

تَردَدَتْ في أنحاء المُعسكرِ أصواتُ الجنود الفرِحة وهم يسلِّمون على بعضهم وصوت قائدهم يفزع بهم ليُسرعوا بالرحيل، اقترب أحدهم بهدوءٍ وحذر تجاه ركنٍ ما، ثم قال بصوتٍ يمتلئ استنكارًا:

- أتمزح يا رجل؟!

لكن لم يحمل الهواء إليه إلّا الصمت، بقوةٍ هزّ كتف زميله القابع أمامه دون أن يُجهز شيئًا حتى الآن من حاجياته.. وصاح بغضبٍ:

- خمسة وأربعون يومًا.. ألا تشتاق لمنزلك!؟

التفّ إليه الأخير وقد غشيت وجهه مسحة استنكار ومع أنه كان يجلس في الظلام إلا أن الأول رآها جلية مما زاد من غضبه؛ فصاح زاعقًا:

- ألم تكتفِ من حياة الجيش؟ والله لولا أن وصتني أمّي عليكَ لما سألتُ بِك، «مُدثِّر» إن لم تقم الآن فسأحملك معي كرهًا وأنزل بك كرهًا.

حينها تحرّك «مُدثِّر» من الظلام الذي يجلس به وانتصب أمام زميله، كان مديد القامة منهوك الجسد، ذابلة ملامحه لكن لم تخفِ وسامة مطوية بين جنبات وجهه، تغشى عيناه نظرة تحدٍّ. أطال كلّ منهما النظر إلى بعضيهما ثم ارتد الزميل مُستسلِمًا ليحمل حقيبته ويغادر لاعنًا «مُدثِّر» على عناده، استوقفه أحد الجند سائلًا بفضولٍ وهو يشير إلى الركن المظلم:

- هل تحدّث معك؟

فأجاب بتهكم:

- ومنذ متى يتحدّث «مُدثِّر»؟!

ارتدّ «مُدثِّر» إلى ركنه المظلِم بثاقلِ المهموم، أرخى كتفه وأسند رأسه على طاولة أمامه، ظل يُنصت إلى الأصوات خارج العنبر حتى خفتت تمامًا ولم يعد يجد لها همسًا؛ فأرسل يده إلى خبيئةٍ يحفظها تحت سريره وأخرج منها بضعة أوراق، نثرها أمامه متفرقات ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه عنها وما حوته من كلمات وأخفاها عن ناظريه وكأنه يهرب منها! مرّت دقيقة حتى أمسك ورقة بيضاء لا تحمل خطًا، تحسسها بوجلٍ وبعض اضطراب، لحظاتٍ حتى خلع عن نفسه رداء المترددين وانكفأ على ورقتهِ يخطّ عليها بقلمهِ ما يصرخ به صدره...

لكنه لم يجد غير الأسف ليصبّ أحرفه في منتصف الورقة.

نظر إلى ما خطّ؛ فتملّكهُ الغثيان.. على ماذا يعتذر وهو الجبان!

أجمع رأيه؛ فهبّ من مكانه ولملم الأوراق المبعثرة حوله وأخفاها بين ثيابه ثم أسرع في الرحيل، لحِقَ بآخرِ ركبٍ مغادرٍ، تلقفته أعين رفقته بالاندهاش لكنه لم يهتم.

دخل إلى منزل أهلهِ وقد خلا من الأهل! حزينًا مكتئبًا لا يَرى أن أحدًا على وجه الأرض أعظم شقاءً منه، فتح باب غرفته، يقدّمُ قدمًا ويؤخّر أخرى، ينظر أرضًا ولا يجرؤ أن يرفع بصره إلى الأركان!

ساعة مضت ولا فكاكَ من مواجهة الأمر، مازال يتقلّب فوق نار القلق وماء الحيرة، لملم شتات نفسه ونزع عنه حلّة الخائفين واتجه إلى الحائط المواجه له؛ نزع عنه ورقة جريدة تُخفي خلفها ثقبًا لا يتسع إلا لكفِ واحدٍ! مدّ يده وقد اجتمعت برأسه كل كلمات الأوراق الماضية وشتتت ثبات أنامله؛ فصارت تهتز وهي تشق طريقها في ذلك الفراغ بين الحائطين!

تصبب منه العرق وتسارعت أنفاسه وهو يمسك ورقة بين يديه ويخرجها بحذر من بين ثنايا الحائط، وضعها أمامه دون أن يفكّ طياتها، يخشى المواجهة.. وحقيق على قلبه أن يفرّ منه! فآخر ورقة قرأها صنعت نكبةً به لا تزال لوعتها متصلة بقلبه حتى الآن.

تمالك نفسه وأحضر ورقة كان يجمع بها بعض البيانات عن جيرانه وتركها أمامه، أمسك القلم بيده اليمنى وورقة الجدار بيده اليسرى وبدأ القراءة...

الورقة السادسة

يُناديني عاقرًا!

منذ أول شهر يلقبني عاقرًا

ولآخر شهر سينادِيني عاقرًا!

هو أخبرني ذلك، قال لي «هذا أنت وأنتِ لستِ إلا عاقر.. فلمَ خُلقتِ؟»

لم أرد، لم أجد ما أرد به؛

خشيتُ الدفاع والإيضاح أو طلب فرصة أو حتى الذهاب للطبيب، خشيتُ كل شيء، خشيتُ أن أتنفس فيضنّ عليّ بالهواء؛ آثرتُ الصمت..

ففي حضرته.. السكوتُ ركنٌ من أركان الزواج!

أمرني هذا اليوم أن أظلّ في ركني المخصص لي خمس ساعات كاملات دون حِراك؛ سعدتُ بأمرهِ.. فهذا يعني أنه لن يحدّثني لبعض الوقت، اتجهت كما أمر لمكاني المعتاد.. بين عمودين..

المسافة بينهم خمسون سنتيمتر، أقف وأنتظر أمره الجديد، أشعر وكأن المكان عليّ يضيق! فأنا كما أنا لم يزد وزني منذ زمن بعيد، أشعر بالاختناق، نفَسي يصعُب، لاح لي الأمل في هيئة أوراق، كلها أيام وسأستطيع الحصول على البعض لأكتب عليه الذكريات.

قطع فكري وناداني بكل ثقة.... عاااااااقر!

فأجبتُ.. نعم!

فسألني باستنكار..

«لمَ لا أبتسم في وجوده..

أليس هو كمطلعِ النهار!»

خشيتُ أن يكون مازحًا ولم أضحك أو يكون جادًا فلم أعبس؛ سألته .. «أيًا ما تريد؛ اؤمر»

فقال بغضبٍ .. «وكأنني تزوجتُ حمار!»

ولطمني كأشدّ ضارب ونعتني نعوتًا غلاظًا، وركلني قائمًا وشتمني جالسًا ثم ناداني إلى الفراش!

فنامَ ونمتُ وبيننا من القهر جدار..

وصحوتُ ثانية وخدّي مبللة والوسادة تشكو سطوتي عليها ودموعي التي أغرقت جنبيها، تمنيتُ الموتَ اليوم مراتٍ ومرات..

لمَ لا يأتي الموتُ وقتما نريد أيتها الأوراق!؟

اليوم نفد المُسكِّن ولم أجد ما يطفئ ألمي، ظهري يؤلمني أيتها الأوراق..

عنقي يؤلمني أيتها الأوراق..

بطني تؤلمني أيتها الأوراق..

لا أرى بوضوح فهل ترقصين أيتها الأوراق!

توقفي فالكلمات تتداخل .. أوراق حمقاء!!

انتهى «مُدثِّر» من الورقة، لملم شتات غضبه، كتم الكثير من غيظهِ، نظر إلى الورقة مرة أخيرة، مثل كلّ مرة تغلبه ابتسامة استغراب وهو يرى كاتبة الكلمات وقد وضعت مكان النقاط قلوبًا صغيرة، أنَّى لها أن تجد في نفسها مثل هذا!

نفض عن رأسهِ التفكير، أمسكَ ورقة البيانات الخاصة بجيرانه؛ استنار وجهه بنور الأمل وهو يُخرج منهم من كان له ذرية ليستطيع معرفة صاحبة الأوراق، حذف قبلًا الأقارب ثُمّ الأُسر التي بها

الزوجات يعملن، ثُمّ الأسر التي بها الأزواج على سفرٍ دائم، تبقى عشر أُسر في العقار، ما زال الطريق أمامه طويلًا، استكثر المشقة ثم انفض من مكانه وغيّر ملابسه وغادر المنزل، التفّ باتجاه الشقة المجاورة له، مازالت فارغة كما هي بلا حتى باب، تزداد الحيرة داخله كلّما رأى رسالة جديدة والشقة لا تحمل بها سكانًا!

استوقفه في نزوله جارٌ له يوزع الهدايا والشربات.. زوجته حامل؛ فاستلم هديته ثم أخرج ورقة البيانات من جيبهِ وحذف اسم الجار وزوجه من قائمة الاحتمالات.. تبقى تسعة.

***

« لا تنتظري بائع الورد.. فبعد الزواج لن يُعرف لكِ عنوان»

«لا تنتظري هدايا.. فلا يوجد مكان كافٍ لوضعهم فيه بالإضافة أن زوجك لن يحب كثرة الألوان»

«لا تشتري الشموع .. فزوجك لن يحب رائحة الدخان»

«لا تلبسي القصير.. فزوجك سيشتكي من غلاء دواء الزكام»

مع تحيات صفحة #اتضحك_علينا

الأدمن «عاليا»

أنهت «عاليا» كتابة المنشور ثم عبرتْ الطريق حتى محل العطارة، لم تنتبه إلى ذلك الشاب الذي انتفض من مكانه فور رؤيتها وكأنه في حضرة الكوكب المنير، كلّما التفتت بوجهها تجاهه ارتسمت بسمة

مُستبشرة على وجهه لكنها ما تنفكّ تتلاشى حينما تلوي بوجهها بعيدًا عن موضعه، ثوانٍ هي توقظ الأمل وثوانٍ أخرى تبدلهُ بالألم..

أما آن لمشاعره أن تحيا حياة كاملة دون انتهاء؟!

تساءل في نفسه زافرًا بأنينٍ متقطع.

« كم الحساب هنا؟»

أخرجه السؤال من تيهه فرفع وجهه إليها؛ فارتد البصر إليه نابضًا بالحياة وهو يراها هي السائلة، لم يستطع منع نفسه من الغوص في عينيها البنيتين أو التلكؤ على صفحة وجهها ليحفظ تلك اللحظات في ذهنه عمرًا طويلًا، سألته «عاليا» مرة ثانية بغضبٍ وهي تراه متسمّرًا أمامها دون حراك؛ فانتفض على إثر كلماتها وأخذ المشتريات منها ليحسب قيمتها.

وقفتْ بتململٍ تنتظر إجابة البائع عليها، ناداه أحدهم «عليّ» ؛ ابتسمت مُفكّرة «إذًا هذا هو اسمك!»

رفع وجهه إليها في نفس الوقت، خشيتْ أن تكون كلماتها خرجت من لسانها إلى سمعه، لكنه نظر لها بطيبةٍ وهو يخبرها بالحسابِ ويرجوها أن لا تدفع هذه المرة؛ قابلت رجاءه باستنكار وهي تمدّ له المال وتخرج إلى طريقها.

ودّعها بنبض قلبه. مع كل خطوة منها تدبّ النبضات بقلبه دبيبًا صارخًا! ثم أنهى متابعتها ببسمةٍ متأمّلة ودعاء خفيّ إلى ربّ القلوب..

أما هي فلم تكد تعبر الطريق حتى أخرجت هاتفها بترقبٍ لتجد أن المنشور الخاصّ بها قد وصل إلى..

مائتي إعجاب.. و مائة تعليق.. وخمسين مشاركة!

فاطمأن قلبها ورفعت وجهها إلى السماءِ بامتنانٍ ثم عادت إلى بيتها طيبة النفس قريرة العين مزهوّةً مختالة بما تجني من حكيم كلمات وعظيم نصح!

أمّا «عليّ» فقد بقي في الخلف ينظر إلى التقويم الميلادي بجانب رأسه، «خمسة أشهر».. تلك هي المدة التي سكنَت فيها «عاليا» قلبه ولم تُفارقه، منذ أول يوم رآها تدخل عليه الدكّان؛ فامتلأت روحه من روحها إجلالًا وتعظيمًا، لم يدرِ كيف ولمَ؟ لكن روحه تعلّقت بها؛ فقرر أن يعرف كلّ شئ عنها، وكل ما عرفه لم يزده إلّا حرصًا عليها وتعلّقًا بها، يؤمن هو بتلاقي الأرواح قبل الأجساد؛ لذا يتحدّث عن يقين أنّ روحه قد التقتها؛ فكلّمتها، وألبستها ثوب الشرف في نفسه والعفّة في نفسها.

عمرٌ كامل.. خمسة أشهر، كلّ يوم هو في شأن أشد هيامًا من سابقه، حياةٌ كاملة من الانتظار والأمل، وها هو يتوّج الروح بالجسدِ ويهيم فيها ولهًا، الآن الآن.. ليتق الله في قلبهِ ولا يعذّبه أكثر، الآن الآن.. ليفكّر كيف سيطلبها؟

جذبته ضحكات بعض الأطفال؛ فالتفت تجاههم، وجدهم وقد صنعوا حلقة حول «أم الخير» وهي تحدثهم، سار ناحيتها

وقد غلبته الابتسامة من رؤية الأطفال، فدائمًا ما يتجمع الأطفال حولها، تتعلّق أعينهم بها ويدها تتحرّك أمامهم وكأنها تمسك بخيوط أحلامهم وآمالهم تحرّكها في الهواء؛ فتصعد بها أعلى جبال الفرح ثُمَّ تنزل بها أسفل نيران الأحزان، والأطفال لا تنفكّ وجوههم أن تبتسم تارة وتعبس تارة، تضحك تارة وتزمجر تارة، كان قد وصل أمامها؛ فوقف في صمتٍ يستمع لحكيها وذلك الحجاب يخفي جانبي وجهها ومقدمة رأسها وعنقها وبعض جسدها، كانت أربعينية العمر، سمراء الوجه زرقاء العينين.. هكذا كانت تثير العجب؛ فسبحان من أبدع!

يخفت صوتها قليلًا ويعلو قليلًا حسب حاجتها في الحكي.....

(علِمَت «دليلة» أنّ «شمشون» يريد أن يتزوجها، لكن حروبًا كثيرة تنتظره، فقد كانت فتاة مطلوبة..

أشهر صفاتها الحياء؛ وهذا جعلها مميزة عن كلّ النساء!

أُقيمت لأجل «دليلة» المعارك.. الواحدة تلو الأخرى، وكان «شمشون» يدخل المعركة وينتصر، صار الجميع يخشاه ويهابه، والبعض يكرهه ويرتابه، كلّ يوم تزداد قوته ولازال أبوها لم يوافق عليه!

كانت «دليلة» تحبه لكن لم يعلم ذلك أحد، وكان «شمشون» يحبها وما جهل ذلك أحد! ....)

ضحك الأطفال و «أم الخير» تحرك يديها على الأرض؛ فترسم خيالًا لحصانٍ عربيٍ يجري مهرولًا وتُكمل.....

(في يومٍ وافق أبوها على زواج «شمشون» من ابنته؛ فأُقيمت الأفراح وعلّت الزغاريد في الدار، لكنّ قلب «دليلة» كان يضطرب كل دقيقة!

زُفّت العروس.. وبعدما رحل الجميع وقبل أن يرفع الزوج الحجاب عن وجه زوجته ...

اقتحم رجالٌ الدارَ، كانت بينهم وبين «شمشون» عداوة، التفّوا حول الزوجين، حاولوا خطف «دليلة» لكنّه لم يسمح لأحد بوضعِ يده عليها، فانقضوا عليه يحاولون قتله، فأمسك زوجته من يدها ودفعها خارج الدار وهو يهتف بها...

«اهربي يا حبيبة.. اهربي»

ثُمَّ عاد إلى الرجال الأشرار.. وما هي إلّا دقائق حتى انهار كلّ شيء، سقطت الدار على من فيها، وبمفردها نجَت «دليلة»!)

بكى بعض الأطفال من حول «أم الخير»؛ فصاح «عليّ» مُهدئًا وقد سمع القصة منها من قبل عشرات المرات:

- لا تحزنوا، «شمشون» لم يمُت.. فالمحبّ لا يموت!

سأل أحدهم «أم الخير» وقد نمَت على وجهه أمارات الأمل:

- هل حقًا لم يمت؟

فأجابته بضحكةٍ عاليةٍ وضمّة حانية:

- بالطبع لم يمُت.. فكيف تحيا «دليلة» دون «شمشون»؟!

هلل الأطفال فرحين...

«شمشون حيّ.. شمشون حيّ.. شمشون حيّ»

ابتعدوا وخفتت أصواتهم؛ فاقترب «عليّ» من «أم الخير» فعاجلته بقولها:

- تبقّى أمامي خمسة كيلو طماطم، تأخذهم يا ولدي؟

ضحك من قولها وأجاب:

- دائمًا تفعلين معي هذا يا خالة..

- لو أنّك تردّني مرة؛ لما فعلتُها كلّ مرة.

أخرج من جيبهِ المال وقدمه لها وهو يُكمل ضحكته وتتابع هي كلامها:

- تأتي كالأطفال لتسمع قصص الأطفال، فمتى أحكي لهم قصتكَ يا ولدي؟ متى أفرح بك؟

- عسى أن يكون قريبًا يا خالة.. عسى.

التفّ تجاه الباب المجاور لـ «أم الخير» فلم يجد حذاءً أمامه؛ فسأل:

- لم يستيقظ زوجكِ بعد؟

- الله لا يقيمه يا ولدي.

نظر إليها في حنوٍ ثُمّ مدّ يده إلى ما اشتراه من طماطم وألقى عليها السلام وابتعد، لطالما فكّر في حال تلك المرأة وتعجّب، تكدّ نهارًا

وتشقى، وزوجها نائم حتى العصر.. فإذا ما قامَ؛ جلس أمام بيته يصلّح أحذية الناس، لكن يمنع «أم الخير» أن ترى أحدًا أو تفعل شيئًا، وكأنها لم تكن تجلس النهار كلّه تكدّ وتتعب لأجل تحصيل القوت الذي لا يأتِي هو بنصفه أو ربعه حتى من تصليح الأحذية، ومع كلّ هذا تصبر عليه، وتخشاه، وتطيعه.. عجيب أمرها وأمره!

***

خلع الأفُق ثوبَ الدُجى؛ فتبسّم الفجر ضاحكًا من شرقِهِ.. لكن بسمة «وِصال» لم تزُرها بعد، بقيتْ ساكنة لا تتحرك على فراشها وتمرّ الساعات حولها لا تلقي لها بالًا، تصل يدها مرارًا إلى موضع حملها بحذر، تتمنى لو أنها تخنقه خنقة لا يقوم بعدها أبدا، ثم تهتز يدها بعجزٍ وضعفٍ وهي توقن أن لا طاقة لها بمثل هذا الفِكر، تمكّن منها النفور وذهب بها إلى أبعدِ مذاهبِهِ حتى نال منها كلّ مسلك، فما عادت تنتبه إلى شاردة أو واردة.

أقبل عليها «غالِب» ضاحكًا وقد تجلّت على مُحيَّاه تلك النظرة التي ملَكت قلوب العاشقين وأفقدتهم ثباتهم ورسوخهم وكأنما أشرق الحبّ على قلبهِ من جديد كما تُشرق الشمس على نفوس المُحبين فتُلملم الكلمات وتُبعثر النسمات.. فهاهُنا رشفة عشق وهاهُنا نفحة وَلَهٍ، فظلّ ينظر إليها مُتأمّلًا حتى استحالت جذوة النار الساكنة بقلبهِ والتي تقضم فؤاده قضمًا إلى بارقةٍ تضيءُ ما بين جنبيه من الحبِ.

أمسكَ كتِفها وأسكنها أضلعه وهو يهْمس باسمها مرات ومرات ويسألها.. «ماذا سنسميه؟»

لم تحاول الرد أو لم تستمع، تساوى الأمران، فهي في جميع الأحوال لن تُجيب، يضرب خافقها الدماء وكأنه يقطّع ما بين جنبيها، لكنها صامتة لا تُجيب، سألها «غالِب» عن سبب صمتها مُستنكرًا..

فلمْ ترُد.. فهي لا تكترث بما يكفي؛ لتُجيب.

تسأل روحها.. هل يُحاسبها الله على عاطفة غير موجودة؟

فهي لا تشعر بأي شئ تجاه ذلك الحمل.. أيّ شئ يربطها به، فقط تراه قيدًا من نار يُلفّ حول جسدها، لو تملك أن تُطهر نفسها منه، تغتسل من داخلها اغتسالًا حقيقيًا يُذهب بأي أثر من آثاره!

فهل تلك الأمانيّ قسوة منها؟ كيف تكون قسوة وهي تجهل معنى أن تكون وحدها أمًّا!

وليست أيّ أُم.. بل لثمرة «غالب»، ذلك المُحبّ.. وياله من حبّ!

قاطعهم صوت طرق مُفزع على الباب يكاد يكسره، فزِعتْ من أفكارها وهبّ هو من مكانه غاضبًا، ولم يكد يصل للبابِ حتى كُسِر واقتحمته الشرطة بأسلحتهم وهم يُقيدون حركة «غالِب» تماما، خرجت «وِصال» من غرفتها لا تتمالك أنفاسها وهي ترى زوجها وقد وقف صاغرًا بين يدي الشرطة، بتلقائيةٍ امتدت يدها إلى موضعِ حملِها، كأنها وللعجبِ تخشى عليه هو الآخر! ونظرة الفزع على وجهها قد تغيّرت لتصل إلى حد البكاء.

سِيقَ «غالِب» الذي استغرق في التفكيرِ إلى الباب، وقبل أن يصِلَهُ وعلى مرأى من الشرطة؛ التفت إلى زوجه وصاح:

- وِصال.. أنتِ طالِق.

وحلّت الدهشة محلّ الفزع في نفسها وعلى صفحة وجهها وهي تنظر إليه ولا تجد تفسيرًا أبدًا لما فعل!!!

***

وصل «مُدثِّر» إلى «دار الحياة»، خطى من الباب تجاه مسئولة الدار، أخرج لها بطاقته؛ فتسلّمتها منه وسجلت بياناته وأعطتهُ شارة الزائرين، ابتسمت له ولم تتوقع منه أكثر من ردّ الابتسامة فهو لن يحدّثها ولن يرد عليها أبدًا؛ لذلك تكتفي بالابتسام.

وصل إلى الغرفة التي يرجوها، طرقها طرقًا خفيفًا ثم دلف إليها بهدوءٍ وروية، في ركنها جلست فتاة غجرية الشعر تتمثل في وجهها نسخة من الحُسن لولا أن بعض الوهن يخفيها تحت ردائه، رقيقة الجسد عشرينية العمر. أقبل عليها مُقبّلًا كفها ورأسها، تحسس جبهتها بيده، مسح على شعرها، وضع لها زهرة حمراء في أعلى رأسها مما أعطاها مظهرًا ملائكيًا، ثمّ أخرج من حقيبةٍ يحملها أسورة ذهبية رقيقة ألبسها لها في معصمها، لفّها باتجاه النافذة وأحسن مجلِسها ثم أحضر كُرسيًا وجلس أمامها مُبتسِمًا بعكس ما يحمل قلبه من أحزان....

وقال...

- اشتقتُ لك يا «وردة» .

أطال النظر إلى وجهها ثُمَّ لَمَح في عينيها ماء؛ فاختفت عنه حدود المكان وكأنما اقترن اليُمن بيُمناها واليُسر بيُسراها وتلقفّ هو وجهها بنظرةٍ مُستبشرة ثم أقبل عليها مُقبِلًا الرأس واليد، وضمِّها إلى جناحه ضمّة دامت دقيقة أو يزيد.. أخرج فيها كل ما يريد...

فبكى دمعات وتنهد مرات، وهو ينادي اسمها بارتجافةِ شفتيه...

اااهٍ يا وردة... ليتني لا أضطر إلى فراقك.. ليتني...

لملم بعدها من شتات نفسه الكثير ثم جلس تحت قدمها يحركّها كما أمر الطبيب، ينظر إليها ما بين كل عشر ثوان مرة أو مرتين لعلّه يلمح في عينيها أملًا؛ فيعينه بالصبر، أو يلمح فيهما سكنًا؛ فيعينه بالرضا.

تتبخّر أمانيه على أعتاب عِلتها مرات ومرات، فيسقط رأسه على قدمها وهو يئن أنين المحزونين ويشكو إلى الله نكبة في نفسه لا تفارق فؤاده لحظة.

وإنه لمُستغرقٍ في ألمه إذ حركته يد بقوةٍ وخلفها صوت يصرخ به « ماذا تفعل هنا؟»

أجفل لِما سمع وأدرك؛ فهبّ من مكانه وسقطت عنه قدم «وردة» فأسرع يتلقفها بحنوٍ ويعيدها إلى مكانها ببالغ أسف، فجذبته اليد من جديد لتخرجه خارج الغرفة لكنه رفعها بقسوة وحرّكها

بعيدًا عنه ووقف مكانه، تخشى اليد أن تعود إليه مرة ثانية ونظرة الشرر تتطاير منه، صرخت صاحبتها منادية على الأمن؛ فجاءوا يتقدمهم رجل ضخم الجسد عظيم البطن، يتحرك بثقلٍ، ما إن دخل حتى وقف بجانب المرأة الصارخة وخرج صوته غليظًا وهو يسألها باستنكار:

- ماذا يفعل هنا؟

حرّكت كتفها بجهلٍ وهي تتحسس بألمٍ موضع إمساك «مُدثِّر» ليدها ثم صاحت بالأمن:

- أخرجوه من هنا، لا أريده أن يدخل هذه الغرفة مرة ثانية..

هنا تدخلت مسئولة الدار مُقاطعة:

- لا نستطيع منعه.. فله حق التواجد.

فزمجر الرجل الضخم زمجرة قوية ثم صاح بغضبٍ:

- حسنًا، ما دُمنا هنا؛ لا نريد أن نراه مع ابنتنا.

كل هذا و«مُدثِّر» صامت لا ينطق حرفًا، تناقلت عيون مسئولة الدار بين ثلاثتهم ثم أقبلت على «مُدثِّر» وهمست له أن يرضى بكلمتهم الأخيرة منعًا لأي مشاكل أخرى.

فأذعن لها ناقمًا، اتجه إلى أشيائه ولملمها بأسى ثم وقف أمام «وردة» وعلى مرأى من أبويها ضمّها إلى صدره ضمّة شديدة كأنما يضنّ بها أن ينتزعها من ذراعيه مُنتزع ثم قبَّلها على جبينها.. وخرج.

ذهب «مُدثِّر» إلى «دار الحياة» وما يُنكر من أمره شيئًا، فلبث فيها بضع ساعات، ثم عاد لا يُحسن من أمره شيئًا!

ذهب بقلبٍ مُتلهفٍ يأنس بالعفو ويستريح إلى عبق الراحلين، وعاد بقلبٍ لا يفارقه السخط على الأرض وساكنها، والأحزان وصانعها، يطلق الزفرات بغضبٍ فيصعد منها ما يصعد وينحدر منها ما ينحدر، حتى تُشفى نفسه أو يخفّ أنينها.

جلس بغرفتهِ وقد انتصف الليل تتلقفه الآلام تارة وتحتضنه الذكريات تارة، كلٌّ ذو بأس على قلبه وصدره حتى تتقطع منه الآهات تباعًا، وما أخرجه من ما يكابد غير خشخشة يعرف سببها ويدرك معناها في الحائط المجاور له، فانتفض من مكانه وخرج لاهثًا حتى يرى صاحبة الرسائل، لكنه ما إن وقف أمام الشقة المجاورة حتى وجدها فارغة وسمع من بعيدٍ صوت أقدام مُسرعات تصعد لأعلى؛ منع نفسه من متابعتها خشية أن يُخيفها.

دخل إلى الشقة المهجورة ونظر إلى ذلك المخبأ فرأى الحجر الذي يسدّه مُتحركًا؛ فذهب إليه ليقيمه؛ أخرجه من مكانه ليعيد إدخاله بصورة صحيحة؛ مدّ يده بحريةٍ داخل المخبأ فتفاجأ بأكثر من ورقة ترقد بقعرهِ عكس ما توقع من أنها ورقة واحدة، ولعلّ منهم جديد وفيهم قديم؛ جَمَعهُم ثم أعاد الحجر إلى مكانه باعتدالٍ وعاد إلى شقته.

عدّ الأوراق وجدهم خمسًا؛ شعرَ بالوجلِ من رؤيتهم، حاول فتح ورقة منهم لكن غلبه الاضطراب؛ فأغلقها ثم أخرج ورقة بيانات جيرانه وحذف منها من يسكن في الأدوار السفلية وترك من يسكن في الأدوار العلوية؛ بقيَ عشرة فقط..

أحسّ بالأوراق تتلوى بين يديه، تستصرخه أن يفتحها، تناديه من بعيد ليفضّ أسرارها بنفسه، ألقاها بعيدًا عنه وكأنّه يهرب منها فانفرط جمعها وتفرّقت أرضًا، صَرفَ وجهه عنها، دقائق ثم عاد ينظر إليها متأملًا ومتألِمًا، مدّ يده إلى أقربهم منه موضِعًا.. عادَ بظهرِهِ إلى الحائط وهو يُمسك الورقة بين يديه يغلُبهُ الصمت تارة ويتمكّن منه الأسى والحزن تارة أخرى، ظلّ دقائق حتى أجمع رأيه على فتحها، تنفّس بقوة وكأنه يُهيّء نفسه لجزعٍ جديد سيسكُن صدره، ثم فتحها..

الورقة السابعة

اليوم خاصّ جدًا أيتها الأوراق،
لن أُخطئ.. لنتفِق ..لن أُخطئ،
ذكريني ثانية.. لن أُخطئ،
ما دمتُ لن أُخطئ؛ إذًا لا عقاب،
أحسنتِ النصح أيتها الأوراق..
لذلك سأحتفل معك بعيد ميلادي.
اليوم أيقظني،

ثم قبّلني قُبلتينِ.. وضمّني اثنتينِ.. وابتسم مرتينِ!
وحدّثني أن يوم ميلادي نعمة عظيمة لديه
فطلب مني طعامًا مخصوصًا.. وحلوى مخصوصة
ففرحتُ.. وأنا لم أفرح منذ زواجي إلا ساعتين أو يزيد!
لا تستغربي أيتها الأوراق.. فقد عددتهم
صنعتُ ما يريد.. وجودتُه ويزيد،
أخبرني أنه سيأتيني بهديّة أيتها الأوراق..
هل لديكِ أيُّ أفكار؟
أنا لدي، أظنّه سيأتيني.. بلُعبة تُسلّيني
سأنتظر لأرى حين يعود.. الآن اخفضي صوتك حتى أعود.
...
مرحبًا ثانية أيتها الأوراق..
ألم نتفق أن لا أُخطئ أيتها الأوراق!
إذًا لمَ لمْ تذكّريني بالملحِ أيتها الخائنة؟
لقد نسيتُ ملح الأرز.. مع أنه لم يكن سيئًا لكنه كرِهه
فأحضر دفتره الخاص..
وأخرج منه عقوبة ترك ملح الطعام كلّه أو بعضه
وأخبرني أنه سيعاقبني عقوبة ترك ملح الطعام كله..
حتى لا أُكرر الأخطاء!

لكنّي صرختُ به..
أجل صرختُ به.. فأنا لا أرضى بالظلمِ
حسنًا أيتها الأوراق... لا تنظري إليّ هكذا..
سأقولُ الحق..
لم أصرخ به .. لكني رجوتهُ أن يعاقبني عقوبة ترك بعض الملح وليس كله
وبعدما غطيتُ أقدامه ببكائي .. وافق أن يعاقبني عقوبة ترك البعض فقط..
وساقني إلى العمود.. ووجّه وجهي إليه
وكبّل يدي.. وغمم عينيّ..
وشقّ رداء ظهري .. وجلَدني خمس جلدات
فسقطتُ.. وسقطت الدنيا عليّ
أحسستُ بروحي تخرج..
لا تقلقي .. فلم أبكِ
لم أقدر على البكاء
لم تكن بي قوة إليه.. أو حرصًا عليه
ألا يستحق الجلد أن يكون لأمرٍ أكبر من هذا أيتها الأوراق..
مثل حرق الطعام مثلا.. أو انسكابه أرضًا!
بعدها بدقائق...

أحسستُ بيدِ تتلقفني.. إنها يده
ضمّني إليه ثم أمرني بالقيامِ؛ فقمتُ..
وساقني إلى الغرفة وقدّمَ إليّ هديتي..
خاتمًا ذهبيًا مُحلّى بالأحجارِ.. من أجلي
ألبسَني إياه ويدي متلطخة بالدم.. لكنه لم يهتم
ثم ضمني إلى صدره ومرّ بيده على جروح ظهري النازِفات
ثم همس بأذني...
لا تُخطئي ثانية يا حبيبتي.. فأنا أُعاقب المخطئين.
...
لذا..... ذكّريني ألا أُخطئ العام القادم أيتها الأوراق
لن أُخطئ العام القادم....
لن أُخطئ العام القادم...
لن أُخطئ العام القادم..
لن أفعل.

أغلق «مُدثِّر» الورقة وقد اختنقت العبرات بصدرهِ، وارتعدَ ارتعادًا شديدًا، ودّ لو يصعد إلى جيرانه فيهددهم بالقتل واحدًا واحدًا حتى يجدها..

أو لو استطاع أن يتخذ من أحزانها سُلمًا إليها فيُخرجها من بأسها،

تمنّى أن يضع أمام كل بابٍ جمرة من الجحيم؛ فيمرّ عليها الأزواج مرور الصِّراط حتى يسقط فيها كلّ ذي بأس قوي عتيد..

ودّ «مُدثِّر» بحقٍ أن يفعل الكثير..

تعاظمت عليه الأفكار، تثاقلت على صدره كذلك وهو يتحسس تلك القلوب الصغيرة مكان النقاط على الأحرف، لازالت تغلبه الحيرة من تلك الروح التي لابد أنها فقدت قلبها في ظل ما تكابد ومع ذلك تنثر كلّ هذه القلوب من حولها!

وفي غمارِ استغراقه نظر إلى ساعته؛ لملم حاجياته من جديد فقد انتهى أسبوع الإجازة وعليه العودة إلى الجيش بنفسٍ مُثقلةٍ بالهم.. مُكبّلة بالأوراق!

***

طلعَ الصباح علىَ «عِلِيّ» وقد قضى ليلة اكتحل فيها بماءِ السَهَر وتململ على فراش الأمل، قلِق الوِسادة.. تجمّعت عليهِ همومهُ وشكوكه ففرقت ما بين مضجعهِ ونومته فراق الغاضبين؛ فقام مُستثقلًا القيام ومشى مُستثقلًا ما عليهِ من مهام.

نظر إلى السّماءِ فلمّا أيقن أن الليل قد خلع ثيابه وحدر الصباح نقابه؛ تنفّس مُستمسِكًا بالشجاعة ورابطًا قلبه بسيفها وأعاد على رأسهِ ما بات ليلته كلها يحفظه، يمرّ الوقت وهو يردد ما يريد، ويعيد فيه ويزيد، وينقص حتى يجمّله أو يهذّبه، ظلّ كذلك حتى نادى

منادي الظهر .. أن حيّ على الصّلاة.

فخلع السرابيل وارتدى حُلّة الواثقين ومشى في طريق المسجد، ينادي الكريم الجبّار أن يُسبغ عليه من فضله وتوفيقه ما يشاء أن يُكرِمه به، ظلّ كذلك حتى دخل المسجد؛...

فصلّى ودعا، ثم دعا وصلّى، ثم أكثر من الدُعاء..

حتى رأى أمامهُ من يريد؛ فأرقَلَ إليهِ، مناديًا عليه، لاهِثًا بين يديه..

وكان رجلًا ستينيًا تمكّن اللون الأبيض من رأسه وما ترك فيها للسوادِ مكانًا، طيّب الملامح، صبيح الوجه، لا يغادر المسجد إلّا قليلا، فلمّا استمسك «عليّ» قلبه وثبت لسانه؛ تنحنح ثم قال بقوةٍ:

- عمّ مُصطفى.. هل لكَ أن تسمح لي بالقدوم لمنزلكم غدًا.

- ولِمَ يا بُنيّ؟

حاول التماسك وقلبه يخفق بقوةٍ وهو يتذكّر وجهها مع اسمها الذي سيلفظه لِسانه، ضمّ يده إلى جناحهِ علّه يُسكِت ذلك القلب المفضوح بدقاتهِ، لكن ماذا سيفعل بوجهه وقد قامت كلّ شعرة منه تنبض مستبشرة؛ فكتم ما استطاع وتفلّت منه ما لم يستطعِ وهو يقول بقوةٍ وثقةٍ:

- أتشرّف بأن أطلب يد ابنتك «عاليا» يا عماه.

***

أفاق «مُدثِّر» على آذان وصوله وقد استوى شباب النّهارِ على رونقِ الضحى؛ فخلع عنه سرابيل الكسل الغافل وتلبّسته أردية الحزم الواثق، أسرع إلى عنبره فوجده خاليًا؛ فتعجب لذلك أشدّ العجب، وضع متاعه وخرج يبحث عن باقي رفقته.. فهو لم يتأخر إلا ساعات لا أكثر.

ثم حين وجدهم رآهم وقد اجتمعوا في بقعةٍ صفراء تلمع تحت السّماء وقد أوقدت الشمس نارها وأذكت أوارها، بعضهم يلهث وبعضهم يكاد يسقط أرضًا من ذلك الأثر!

نظر لقائدهم بتفهمٍ، لكنه كان شخصًا جديدًا؛ فقدّم له التحيّةِ العسكريةِ، اقترب منه القائد ثم صاح:

- من السّارق يا مجنّد؟

نظر «مُدثِّر» بتعجبٍ إلى رفقتهِ لكن معظمهم قد أولى اهتمامًا لردِّ فعله على السؤال أكثر من توضيح أمر السرقةِ له.

تمنى الأخير منهم إيضاحًا لكن ليس كلّ ما يتمنّاه المرء يلقاه، أعاد القائد سؤاله وبقيَ «مُدثِّر» على صمتهِ، ينظر أمامه بشموخٍ وثبات، وقد تلحّفَ بجلباب البراءة مُستكينًا إليهِ مُعتمِدًا عليه، مُستكفيًا بالرمز عن العبارة.

لكن القائد لم يُعجِبه صمته فأمرهُ بخمسٍ وعشرين ضغطةٍ على الرِمال؛ فنزل «مُدثِّر» أرضًا وجاء بهم جميعًا حتى أجهده الأمر ثم

وقف يلتقط أنفاسه، لكن القائد أقبل عليه ونظر إليه صائحًا:

- من السارق يا مجنّد؟

نظر «مُدثِّر» أمامه صامتًا إلا من صوتِ أنفاسهِ المُتقطِع؛ فلمّا لم يجد القائد جوابًا مرة ثانية؛ أمرهُ بخمسٍ وعشرين آخرين، تملّك الأول التعب لكنه مع ذلك نزل أرضًا وأتى بهم جميعًا وما إن وصل إلى آخرهم تهاوى جسده وقد خذلته قوته وتخلّى عنه نشاطه، رآه بعض رفقته وهو يتنفس الصعداء بضعفٍ فاستأذنوا ليُعينوه على القيام، ثمّ لمّا دنوا منه حدّثوه بهمسٍ أن يُخبر القائد بقدومهِ فقط هذا الصباح وسيكتفي بهذا الرد... سكتَ «مُدثِّر» عن الإجابة عليهم وعقله يحذره من الانسياقِ وراء نُصحهم.

وقف من جديد شامخ الرأس ممدود القامة يأبى الكلام؛ حينها صاح القائد غاضبًا:

- والله إن لم تتحدّث لعرضتك للتأديب العسكري.

صمتَ «مُدثِّر» وهو ينقل بصره بين القائد وبين رفقته، تجمّعت برأسهِ أفكار كثيرة، أخرجه من استغراقهِ صياح القائد من جديد، فابتلع لُعابه وحاول التنفس بهدوء وهو ينفض عنه ذلك التوتّر والاضطراب الذي تمكّن منه، عشر ثوان.. عشرون... ستون..

مرّت دقيقة ومازال اضطرابه يزيد، بل وبدأ العرق يتصبب منه، زمجر القائد، همهم بعض الرفقة مُستنكرين...

همس «مُدثِّر» همسًا ضعيفًا، لكن القائد أعلن بإشارة كتفهِ أنه لم يسمع؛ فوقف الأول بعتادٍ عاليَ الرأس، يتنفس بقوةٍ وفخر ثم تحدّث؛ خرجتْ كلماته بقوةٍ أول حرفينِ ثم اختفى منها بريق الثبات وانزاح عنها ضجيج الثقة مع آخر حرف منها وأثر جملته الأخيرة يتلاشى...

ثانيتينِ أو ثلاث هدمت كل ثقة «مُدثِّر» بنفسه وفخره وقوته، وقد انكشف غطاؤه الصامت وعلِمَ الجميع سبب سكوته مع جملتهِ التي اختنق الصوت وخفت في بعضها وعظُمَ وعلا في بعضها دون قصدٍ منه...

«أنا لللللللللللم أحضر إللللللللا اليوووووووووم»

من بعدها تعثرت الكلماتُ على شفتيهِ ولم تقُم لها قائمة، وانقلب ذلك الفخر لِذلةٍ وذاك الشموخ لِصِغر وهو يطأطئ الرأس يُخفي وجههُ عن أعين رفقته وهمهمات بعضهم، أما القائد فبعدما صُدِم من تلعثمه –تهتهة– حاول أن يُبين أنه لا بأس بما سمع لِيَرفع عن «مُدثِّر» الحرج؛ فالتفت إلى الفرقة كلّها وصاح...

- انصراااف.

❋❋❋

جلسَت «عاليا» تتيه بين الكلمات، وتتمايل بين الأحرف، تتسابق.. تقفز.. تركل، كلٌّ قد اجتمع بها على مسرحها الإلكتروني، توالت حركات أصابعها على الهاتف.. النقرة وراء النقرة، بسرعةٍ

كانت تعدو وبرأسها الكثير من المعاني والكلمات، تخشى عليهم التفلُّت والهرب؛ فتلجمهُم بلجامٍ من حكمةٍ..

«ما الحبّ إلا لهفة يعقبها ضياع!

وأنا لا أثق بلهفةٍ غير لهفة الصبي على لبن أمه..

ولا عاطفة من المرأةِ إلا على ذلك الطفل الضعيف النديّ

فأمّا إذا ما كبُر؛ انمحتْ عنه الرقة وحَرُمَت عليه الشفقة..

فلا خير فيه ولا في عاطفة أمه المهدورة عليه.

مع تحيات صفحة #اتضحك_علينا

الأدمن «عاليا».

ساحت برأسها خيالات الرضا وأمارات الفخر، تتنهّد براحةٍ وكأنما أودعت إحدى أسرارها في مأمنٍ حيث لا يقع إلا بأيدي من يستحق..

وبرأيها .. من يستحق النجاة فقط هو من سيستمسِك بتلك الكلمات لا يغض الطرف والقلب والسمع عنها.

طَرقٌ خفيف على بابِ غُرفتها؛ أذهَب عنها ذلك الطوق من فخرٍ الذي تلبّسها، تبِعَهُ إقبال والدها، وقف أمامها لحظات ثم جلس بابتسامةٍ مُطمئِنة وحدثّها كلماتٍ مُستبشِرات:

- جاءكِ عريس.
- وما الجديد بالأمر؟!

تعجّبَ من قولها الجامد لحظات ثم قال:

- «عليّ» صاحب «محل العطارة» اليوم أوقفني وحدّثني بشأنك...

- بائع الفلفل الأسود!!!

قالتها باستنكارٍ وهي تهبّ من مكانها وتضع يدها على فمها تصطنع الغثيان، نظر لها الأب باستنكارٍ أشدّ قوة منها وهو يُكمل:

- لا تُحقّري منه.. فهو جامعيّ لكن شهادته لا تصرف عليه.. فلا تتحججي بعملهِ وأخبريني سبب الرفض؟

فغضبت لسؤالهِ غضبة شديدة، وكأنما جرح كبرياءها بطرحهِ؛ ثم أجابت بلهجةٍ حادة:

- لا تسألني عن سبب الرفض، فالأسباب كثيرة.

- حسنًا.. كل الأسباب الوجيهة بنظركِ للرفض مثل كلِّ مرة، لكن لعلّ ما يحتاجه الأمر هو سبب واحد للقبول! دعينا نتحدّث...

شعرتْ أمامه على غير العادة بقلةِ حيلة؛ فأردفت:

- وماذا عن فقرهِ.. هل تراني أتحمّل مثل هذا؟

- هو ليس فقيرًا.. حتى وإن كان؛ فالفقر لم يعد عارًا هذا الزمان.

لوّت وجهها بعيدًا مُعترضة يتراءى لها.. ذاك العليّ يطلبها وهي العاليا، ولو أنها تمهّلت لأحسنت التفكير..

تخيّلت نفسها تكتب موعظة عن الفقير على صفحتها..

«لولا الفقر ما وَجَدت لذّة الأشياء من حولها ولا مُتعتِها..

فلا اعتبار للماءِ إلا إذا أحسّت بالعطشِ، وما استلذّت بطعامٍ إلا إذا أحسّت بالجوعِ، وما غشيتها السعادة إلا إذا ذكرت لحظاتِ الشقاء، فلو أنّها تنبهّت لأيقنت أن لولا الفقر ما قنعت.. ما شبعت.. ما ضحكت؛ فما أحوج الغني للفقير!»

نفضت عن رأسها الكلمات وهي تعود لسجادة الواقع صائحة:

- لن أتزوج أبدًا يا أبي وردّي نهائي.

- ولِمَ يا «عاليا»؟

- تُريدُ لي الأسر والاستعباد! وأن تُعلّق حُريتي بخيطٍ رفيع موصول بين كلمتيّ «نعم» و «لا»!

تبتغي ليَ الموت وما وجدتَ غير الزواج سبيلًا!

وقف الأب وقد غشيته الرجفة، جارِحة هي كلمات الاتهام وخاصّة التي تخرج من أفواه الأقربين، قام واقفًا ودونما حديث.. غادر غرفتها، أما «عاليا» فقد انسحبت إلى عالمها العنكبوتيّ وأخرجت هاتفها لتكتُب فيه..

«بائع الفلفل الأسود يريد الزواج مني!

ماذا أفعل؟؟؟

الأدمن «عاليا»

وانهالَت عليها التعليقات:.

- اطحنيه.

- افرُميه
- كسّريه.
- على أعتاب دكّانهِ انثريه.»

تهاوى على كرسيه في وهنٍ، قَطَعَ حسرتَهُ صوت الباب؛ فلمّا ذهب إليه وفتحَهُ.. وجد أمامه «وِصال» مُتلحفة بكسوةٍ ممزقةِ الأطراف، ترتجف يدها وقد ابيض وجهها، وكأنّما هي صورة ابنته دون معنى من معانيها..

كصفحةِ ماء عكَستْ وجهَ القَمر.. ترى فيه الخيال وليس ضوء القمر! فلمّا رأتهُ؛ سقطت بين يديه مَغشيًّا عليها.

نادى الأب على ابنتهِ الغير مهتمة بشيء، فأسندت معه أختها، مرّ الوقت حتى أفاقت «وِصال»، وأول ما كان من حديثها:

- لقد طلقني «غالِب».

حلّ الصمتُ ثقيلًا على الجميع، فقامت واعتدلت وبدأت تقصّ عليهم خبرالقبض على زوجها والتحقيق معها كذلك، لم يدرِ أحدهما بما يجيب بعدما سمعا ما سمعا، أخرجهم من حالتهم تلك صوت طرق على الباب، فتحه «مُصطفى» وبعد ثوان كان يخرج ويغلق الباب وراءه، تاركًا «وِصال» و«عاليا» في دهشة مستعرة!

غادر المنزل واتجه إلى أقرب مجلس وجده بالطريق، جلس هو والضيف الذي كان أمام بابه منذ لحظات، تحدّث الزائر:

- كما قلت لك من دقائق.. أنا المحامي الخاص بالسيّد «غالِب» وقد أرسلني لأطلب من زوجته الحضور غدًا للضرورة القصوى.

- كيف أتيتَ بهذه السرعة؟!

لم ينل ردًا؛ فسكت دقيقة كاتمًا غيظه ثُمَّ تكلّم:

- ألم يطلقها.. ماذا يريد منها الآن؟

- لا تنس سيّد «مُصطفى» أنها مازالت بالعدّة.

- أخبرني من فضلك.. ما تُهمة «غالِب»؟

- أعتذر منك، طلب مني السيّد «غالب» أن لا أجيب على هذا السؤال حتى يُخبر هو السيدة «وِصال» بنفسه.

- أخبره أنها لن تحضر.

- من فضلك لا تضعني بهذا الموقف.

تركَهُ «مُصطفى» دون رد منه وغادر مجلسه، مشى بطريق المسجد يتملّكه التفكير..

ومن بعيد كانت أعين تُراقبه، أقبل صاحبها لاهثًا وقد تلألأ جبينه كتلألؤ الكوكب الأزرق في الفضاء، وافترّ ثغره عن الأنوار كافترار الأكمام عن الأزهار، فلمّا استقرّ بين يدي الأب سأله البُشرى، لم يتوقع الأخير مثل هذه المقابلة الآن أبدًا؛ فضاق صدره حزنًا ولم ينطلق لسانه حرجًا، لكن عينه أوضحت الكثير؛ فهِمَ «عليّ» كل شيء وعرف إجابة سؤاله، فمدّ يده وسلّم على «مُصطفى» بقوة،

ربما قوة أكبر مما يحتاج السلام بكثير، لكن لعلّها لم تكن قبضة سلام بل قبضة ألم وأنين، وجهه لم يتغير، عينه لم تمتلئ بالدموع، شفتاه لم تنقبض أو تتحرك، لم يبدر منه شيء غير قبضة السلام ثم ارتحل!.

***

جلس «مُدثِّر» مُنزويًا بأحدِ الأركان وقد ظللتْ وجههُ مَسحة خجل بعدما تعرّى أمامهم بنقيصة لِسانِه، يتلفّت حوله وقد نمَت في عينه نظرة صِغرٍ وتتحرّك جوارحه على استحياء، يقبضُ النَفَس إلى صدرهِ شهيقًا ضعيفًا ثم يُخرجه زفيرًا مُتخلخِلًا، تمنّى الصراخ والشكوى، لكن تذكّر ذلك العهد الذي قطعه على نفسهِ منذ أعوام أن لا يشكو الهمّ إلّا إلى من يرجو عنده البرء؛ فقطع أنفاس أمانيه ثم لملم منها ما تفلّت منه وأسكنه جوفه.

نادى منادٍ ... «مُدثِّر» يحضُر فورًا إلى مكتب القائد.

تبعَ النداء صامت اللسان خاشِعَ العين، فلمّا دخل؛ تسلّمَ الهاتف، وضعه على أُذنه؛ فجاءه الصوت:

- لِمَ لا تفتح هاتفك؟!

أجاب «مُدثِّر» بتعجبٍ:

- «راشِد»؟

- أجل «راشِد».. لا تدري ماذا فعلتُ لأستطيع مكالمتك.

- الهاتف بالبيت يا أخي.

توقف «راشِد» عن الكلام ولم يعد يُسمع إلا صوت أنفاسه.. لحظات حتى سأل بصوتٍ خفيض:

- هل لا زال لم يعُد بعد؟
- لا لم يعد.
- سألتَ كل أصدقائه؟
- أجل.
- سألتَ بالمستشفيات؟
- أجل.
- سألتَ زملاء عمله؟
- أجل.
- سألتَ...

هنا قاطعه «مُدثِّر» بغضبٍ وهو يهتف:

- سألتُ كل إنسان يعرف أبي.. واااااا ومن لا يعععععرفه...

اختنقت الكلمات على شفتيه وضعُفَ صوتهُ وهو يصدر شهقات متتابعات؛ فهتف «راشِد»:

- توقف يا أخي.. توقف، اهدأ من فضلك وتمالك أنفاسك.

أكمل «مُدثِّر» جملته:

- كُلهم أخبروني أنـــ اااااااااا أنه لم يظهر منذ وااااااااااااا وقت رحيييييييله.

سكتَ «راشِـد» لكنه في سرّه يصرخ بكلماتِ السخط، أمّا «مُدثِّر» فضبط تنفسه وأذهب عن رأسه ما يعتلج بصدره ثم همس بعد دقيقتين:

- «وردة» بخيرٍ.

فصدرت عن «راشِد» آهة تحمل ما تحمل في طياتها، لكن «مُدثِّر» عرفها وما جهلها، فآهة الوجد توافق دمعة الشوق التي يُكابدها.. كلاهما حزنان.

- حدّثني عنها؟

قطع الصمت «راشِد» بسؤاله؛ فتنهّد «مُدثِّر» بأسى وهو يجيب:

- هي بخير إن عددتَ الظُلمَ خيرًا.

عادت آهة الوجد تنبع من شفتي «راشِد» من جديد؛ همس «مُدثِّر»:

- مازلتَ تُحبـ..

لكن «راشِد» صاح به:

- لا تُكمل يا أخي.. أرجوك لا تُكمل.

أحسّ «مُدثِّر» بالأسى على أخيهِ؛ فأضاف:

- طردني والدها مؤخرًا وحاول مممممممم ننننن

تنفس بعمق ثم أكمل:

- وحاول منعي عنها..

قاطعه «راشِد» صائحًا:

- لكنه لا يستطيع.. فأنتَ من يتكفل بمصاريفِ رعايتها بالمالِ الذي أرسله لك!.. أخبرهم هذا.. لا تسكت يا أخي.. أخبرهم...

- لم أسكُت.. لم أفعل.. لا تقلق يا أخي.. وردة أمانتي.

انتهت المكالمة وعاد «مُدثِّر» إلى موقعهِ بنفسٍ أشدّ وجعًا وقهرًا بعدما جددت تلك المكالمة عهده مع الأحزان.

بخطوات متثاقلات عاد إلى عنبره مُتململ الحرج، ما إن دخل حتى وجد ثلاثة نفر يقفون أمام سريره وبيدهم أوراق؛ زاغت عينه وتوقفت بقلبهِ النبضات، لا جرمَ أنه اليوم من المقبوحين.

أقبل عليهم صارخًا.. غاضبًا.. حانقًا، لا يلوي على شئ ولا يُبقي على شئ، فقط هي المآسي تُحركه كيف تشاء، تهجَّم بكرهٍ وبغض وكأنما اجتمعت برأسه مكالمة «راشِد» ومآسي وردة وظلام الأوراق؛ فأخرجت كائنًا يحتاج للانفجار حتى يهدأ ما بداخله من قهرٍ وذل، طال البطش منه وعليه، تمزّقت ورقة أو اثنتين.. لا يدري، تجمع حوله باقي رِفقته، البعض يبرر أن الورق كان متروكا بإهمالِ، والبعض يمزح أنه لا يستحق الاقتتال، أما تلك الثلة من المتلصصين الذين قرأوا بعض كلمات؛ فقد انسحبوا إلى إحدى الزوايا صاغرين.

***

بخطواتٍ متزلزلات ظلّ «عليّ» يسير حتى وجد نفسه أمام باب «أم الخير»، ما رأى حذاء زوجها أمام الباب؛ فعلم أنّه لازال نائمًا،

طرق بضع طرقات.. أجابته، فناداها لتخرج، دقائق حتى ظهرت أمامه وقد فزعت ملامحها وهي تسأله:

- ما بكَ يا ولدي؟!

لم يكد يسمع آخر حرفها حتى ضعفت قدمه؛ فهوى أرضًا، جلس متكومًا على الرصيف أمام بابها وهو يُخفي وجهه بيديه، لم يهمه أن يراه أحد، يسمعه أحد، ضاقت عليه نفسه والطريق والدنيا!

جلست أمام الباب تنادي عليه:

- يا «عليّ» أخبرني حالك؟ طمئني عليك يا ولدي.

رأسه للأسفل وعيناه مغمضة ويده قد انحدرت حيث صدره، يربت على قلبه ويهمس:

- لماذا نقع بالحبِّ يا خالة؟!

- لأن الله أراد.

رفع رأسه للسماء وارتعد:

- وهل يريد الله عذابنا؟!

- وهل الحبّ عذاب يا ولدي!

أنزل رأسه والتفت إليها:

- هو عذاب ما بعده عذاب وألم ما فوقه ألم.

سكتت قليلًا وهي ترى الماء يتجمع في عينيه؛ فيصرف وجهه حتى يُخفي أثره، قالت بعد دقيقة:

- ومن قال لكَ أن ما أنتَ فيه هو الحبّ حقًا يا ولدي؟!

هبّ من مكانه واقفًا وكأنما دبّت الحياة في قدمه فجأة، يلوّح بيديه فتراه يصارع عدوًا خفيًا أمامه ولسانه يتحرّك باضطراب مُجيبًا:

- لأنني أموتُ يا خالة..

لا تُفارق عقلي وقلبي وحواسي، أمسكُ الثلج فأجده جمرًا بين يديّ!

أغسل وجهي بالماءِ فيكون دمًا!

أرى النهار ليلًا، والنور عتمة، والأبيض أسود!

تتبعثّر الحروف فلا كلمات، وتتمزق الأحلام فلا أمنيات.. إلاها، هي الأمنية الوحيدة! هي وفقط هي!

قامت من مكانها في خطى ثابتة واثقة حيث انتهت به قدمه، ربتت على كتفه، وأخفت ماء حزنها عليه داخل عينها وهمست له:

- الله لطيفٌ بك يا ولدي.. الله لطيف.

زفر بقوة وكأنه يدفع بذلك القهر خارج روحه ثُمَّ قال بصوتٍ حاول أن يكون هادئًا:

- أخرجتكِ من بيتكِ وزوجكِ لو رآك وسمعني فلن يرحمنا.. هيا يا خالة ادخلي فأنا بخيرٍ أن شاء الله.

انتفضت وكأنّها انتبهت لتحذيره بعدما نست أمر «أبو الخير» وغضبته التي يعلم بشأنها الجميع، فعادت بسرعةٍ إلى الباب وهي تقول:

- صدقتَ يا ولدي.. من يومين قتل قطة كانت تموء من الألم بجانب الباب بعدما صدمتها سيارة، ولّما عاتبته قال أن صوتها أزعجه وهو بهذا قد أراحها وأراحنا.

انتفضت ملامح «عليّ» وهو يسمع حكيها ويهتف:

- زوجكِ هذا قلبه ميّت!

أوقفتها الكلمة قبل الدخول من الباب؛ فالتفتت تجاهه وزادت عليه:

- ليس قلبه فقط.. بل كلّه ميّت.

***

في المساء جلس «مُدثِّر» يزفر من صدره زفرات تكوي فؤاده، بين نار ونار أشدّ منها، يهيم بحيرةٍ بين الأوراق الممزقة، لم يجمع أمره بعد.. يلملمها؟ أم يتركها هكذا علّها ترحل على جناح الريح فتُخلّصه من شرر وظلام مافيها؟

مرّ بعض الوقت ورفقته كلّ منهم قد أصابه من تعب التدريب ما أصابه؛ فارتحلوا إلى حيث النوم والأحلام.

مدّ يده بحذرٍ تجاه إحدى الأوراق.. حاول ضبطها ولصقها لكنها كانت ممزقة من أكثر من جهة، أمّا الورقة الأخرى فقد جاء التمزّق في الزوايا لا الحنايا؛ فأخفى الورقة الممزقة تمامًا داخل جيب خفيّ في حقيبته وأمسك الورقة الأخرى وبدأ القراءة...

الورقة الثامنة..

إليّ يشتاق!

لا تنظري إليّ هكذا أيتها الأوراق

فهو القائل.. «إليكِ أشتاق».

كيف أخبره أني لا أعرف معنى الاشتياق؟

كيف أحدّثه أن ما بداخلي له بغضٌ وكرهٌ ونار!

كيف أتكلّم وهو دائمًا يردد.. «إليكِ أشتاق»؟

أخبَرَني .. أن الشوق أقسام ..

تغيّر مع الأيام..

وهو اليوم يشتاق لِشعري..

أن يمسّده حتى ينام!

فطلب المشط .. وسلّة الأقلام

فأحضرتهم ووقفتُ أمامه بلا حراك

أجلسني وهو خلفي يدللني ويمازحني

ضمّ يديّ تحت قدمه حتى لا تتحرك؛

فيشعر بالاختناق.

«غير مسموح بالحراك.. فهو لشعري يشتاق»

هكذا قال.

فتحسس الشعر .. وفرده وجمعه

ثم قال.. «ما باله مُتكتّل الأوصال؟؟»
ثم أخذ المقصّ من سلة الأقلام..
خِفتُ..
فكّ الخِصال..
هذه تعجبه وهذه لا تفعل
صرختُ..
هذه تُزيننني وهذه لا تفعل
رجوتُ..
حتى صار في النهاية يهمس..
«هذه إليها سأشتاق ..
أما هذه فلا أريدها في الجوار!»
فككتُ يديّ من تحت قدمه وأنا لا أتوقف عن الصراخ
فتركني وقام ينفض عنه بقايا شعري ثُمّ قال مُنتشيًا..
«الآن سأشتاق إليكِ أكثر»
وقفتُ أمام المرآة..
لا أبكي.. لم أبكِ.. لن أبكي
فالآن عرفتُ معنى الاشتياق!
أخشى أيتها الأوراق أن يخبرني المرة القادمة ..
أنه لعينيّ أو يديّ أو قدميّ يشتاق..

فشوقُهُ جحيم وأنا وقُودُ النار!

فزع «مُدثِّر» فزعة مع نهاية الرسالة وألجِمَ لسانهُ بلِجامٍ من قهر، يزداد هدير الغضب في دمه ويفور فورة تكاد تُدمّر كلّ ما بقي من نفسه.. ونفسه لم تعد تحمل إلا البقيّة الباقية من إنسانية أُمّه فيما مضى وروح أجداد تُبثّ في العظام؛ فانكبّ على الورقة يمزقها وقطّع القلوب التي حوتها كلّها بيديه وأسنانه قطعًا صغيرة يبثُّ فيها من لواعج روحه الكثير، ومن يراه يعلم أن هذا الشقيّ يقف على حافة الجنون وما لنفسهِ غيرها من سبيل!

***

أحضروها من الخارج ثمَّ أحضروه من محبسهِ، بصعوبةٍ استطاع المحامي أن يفعلها قبل أن يتمّ نقله، جلست ترتجف.. تذكّرت كلِمات والدها وتأكيده أنه ينتظرها بالخارج، دخل «غالِب»؛ فقامت فزِعة وهي تراه مُكبّل الأيدي، نظر لها بصمت وفي نفسه يعتَمِل الكثير، فلمّا رأى الفزع في عينيها أحسّ وكأن شعبة من شِعاب قلبه قد هوَت بين أضلاعه مُنكسِرة حزينة، أطرق أرضًا هُنيهة كأنّما يعالج في نفسه غمًّا مُعتلجًا، ثم رفع رأسه ونظر إلى «وِصال» نظرة قد اجتمع فيها الحب والشوق وقال:

- هل أنت وحملك بخير؟

- بخير.

تمنّى أن يضمّها إليه ويعانق ذلك الحمل ويبثّه بعض أشواقه، أحسّ في نظراتها همومًا عِظامًا تفرّق بين الجنب والمهاد.. وتجمع بين مشقة العين والسّهاد؛ فحدّثها ألّا تحزن أو تخاف.. فهو على ثقةٍ أنه سيخرج قريبا..

تكلّم طويلًا لكنها ظلّت صامتة، أطال النظر في وجهها وقال:

- لا يؤلمني السقوط ولا حتى بعد المسافة.. فقط أنتِ، أنتِ لستِ هنا، وهذا يقتلني!

امتلأت عيناها ماءً دون ردّ، ثمّ لمّا تحدّثت همست:

- لِمَ طلّقتني يا «غالِب»؟

فاقترب بوجهه قليلًا تجاه موضعها، أخذ شهيقًا قويًا وكأنّه يجمع فيه عبق أنفاسها وأثرًا من روحها، كتم أنفاسه داخل صدره ما يزيد عن الدقيقة والابتسامة تعلو وجهه، والرضا يرتسم في عينيه، أجاب أخيرًا:

- حتى لا ترحَلِي عني يا «وِصال»!

***

بثّ الصباح طلائعه على رءوس العابرين؛ فتنهدَ صاحب القلب الحزين وهو يفتح دكّانه وكأنه يهرب من الألم الذي استجمع خيوطه وجعل من فؤاده مسكنًا له، لاحت منهُ التفاتة عابرة وللمرة الأولى منذ شهر رأى من ملكَت نبضه تمرّ به مرور الجاهلين وتنأى

عن نظره بنهجِ الغاضبين، ثم التفتت قبل اختفائها التام عن عينه وأرسلتْ إليه نظرة حملت في طيّاتها كل معاني البغض والاحتقار ثم ارتحلت من أمامه..

أمّا «عليّ» فقد أحسّ بنفسهِ تصغر في عينه وتتلاشى آثارها بعدما أشرق فيها الحب فملأها نورا.. الآن استحالت عتمة.

استمرّت «عاليا» بسيرها حتى وصلت إلى بيتها بعدما ابتاعت طلبات الإفطار، وقفت «وِصال» أمام النافذة تُبحر على أعتاب الذكريات تجذبها أمواج البوح الساكنة بقلبها، وكلّما تحسست موضع حريتها من يدها يهتزّ خافقها هزّا، ثم إذا ما تذكرت قول «غالِب» أنه طلقها حتى لا ترحل تتبعثر أنفاسها؛ فغموض قوله يؤزّها أزّا، يتعثر في خيالاتها ذلك التأنيب اللطيف الذي قرأته قديمًا في إحدى كتابات أختها..

«ما أنت حينما تقرر الوقوع في الحبِّ إلا تجسيد لحرفي (الحاء والباء) في معناهما الأوحد .. الحمق والبراءة!

فلا الأول أهّلَكَ لتقع في مَن على نفسِ الشاكلة ولا الثاني أمّنك ومهد الطريق أمامك لمن كان بنفس النقاء!»

أخرجها من أفكارها قدوم «أم الخير» التي تحمل لهم البيض كل أسبوع، وما إن رأت «وِصالًا» حتى أقبلت عليها وضمّتها إلى جناحيها ثم لثمت وجهها برقةٍ وهمست بأذنها:

- كيف أنتِ اليوم يا ابنتي؟

لم تُجِب «وِصال» ولم يهتزّ طرفها لقول محدثتها، صمتت «أم الخير» بعض الوقت ثم قالت بهدوء:

- إلى متى الحزن المرسوم على وجهك يا وصال؟

رفعت «وِصال» عينها إليها باستنكارٍ ثم ردتها إلى الأرض؛ فما كان من «أم الخير» إلّا أن تنفست بقوة ثم أردفت:

- يا ابنتي لا تستسلمي لما أنتِ فيه، ربنا يبتلينا ليختبرنا حتى يرى الصابر فينا.

أحسّت «أم الخير» في وجه «وِصال» تأثّرًا؛ فسّرته أنه استجابة لكلماتها؛ فأضافت بثقةٍ:

- لم نرَ من غالب إلا كلّ خير كما يقول والدكِ دائمًا وأنا أظنّهُ مظلومًا وقد طلقكِ حتى لا تتأذي بسبب تهمته...

وهذا هو الاختبار.. أن تصبري وأنتِ لا تعلمين السبب وراء ذلك أو متى ينتهي.

هنا ضحكت «وِصال» بقوةٍ حملت في طياتها عبق الجنون وهي تغادر الغرفة تاركة المرأة خلفها وقد ألجمها الاستغراب من رد فعل الأولى بعدما ظنّت منها استجابة، مرّت دقائق عليها وهي وحيدة؛ فقامت من مكانها بعدما لفّها السكون لبعض الوقت.

أغلقت «عاليا» الباب خلف «أم الخير» بعد رحيلها ثُمَّ أقبلت

على أختها، جلست بجانبها أمسكت الهاتف، تفتّق ذهنها عن قصة ذات مغزى؛ ففتحت منشورًا وكتبت....

« وأنا في الصفّ الأول الإبتدائي أتت مُعلّمة العربي يومًا إلى الفصل غاضبة، دخلت عليها مُعلّمة الرياضيات وحكَت الأولى للثانية عن زوجها الخائن وما فعله بها، واستمر الحديث بينهما حتى اكتشفت المعلّمة أننا جميعًا ننصت إليها؛ حينها قالت لنا أنها ستقصّ علينا قصة أفضل بكثير سنتعلّم منها مفتاح الحياة، قلنا لها احكي قصة «الشاطر حسن»؛ فرفضت، خشينا أن تقصّ علينا حكاية «أمنا الغولة» لكنّها قالت.. بل سأحكي لكم قصة «شمشون ودليلة»...

«دليلة» لم تكن مُجرّد فتاة، اشتهرت بجمالها ورقتها، ذكائها وفطنتها، وكانت ذات مال وحسب، تمناها كل الشباب، أُقيمَت لأجلها معارك، وفي كل الحروب كان يفوز «شمشون» اللئيم بالغش والخداع، حتى أتى اليوم الذي لم يجد والدها مهربًا من أن يزوج «دليلة» من «شمشون»، خاصة وأنّ الأخير كان يهدده بالقتل!

وفي خلال أيام تمّ زواج المسكينة ودخلت بنفسها ذالك السجن المُسمّى زواج!

لم يُقدّر «شمشون» نعمة وجود «دليلة» بحياته، واستمر على خداعه وكذباته، حتى أتى اليوم الذي تيقنت فيه «دليلة» من أنّها ستُنجب طفلًا قريبًا يؤنس حياتها ويكون سندًا لها وعونًا؛ حينها

أخبرت والدها كيف يمكنه كشف خداع «شمشون» في المعارك، وعند أول حرب أُقيمَت كان الجميع قد تجهز للانقضاض على الزوج اللئيم، بدأت المعركةُ ولم تنتهِ إلّا وقد سقط «شمشون» قتيلًا ونالت «دليلة» حريتها أخيرًا؛ لتكون بهذا سيدة نفسها، ورئيسة شأنها، وسلطانة حياتها»

في ذلك اليوم تعلمنا درسًا مهمًّا جدًا من المعلمة..

«أنّ لا نرضى أبدًا أن تكون مصائرنا بيد الرجال»

مع تحيات صفحة #اتضحك_علينا

#الأدمن_عاليا

نشرت منشورها ثُمَّ أغلقت الهاتف والتفتت إلى «وِصال»، قالت وهي تقضم تفاحة بيدها:

- أراكِ تعظمين الأمر يا أختي.. مرّ شهر وأنتِ على نفس حالِك، انظري إلى ما خرجتِ به؛ وسترين أنك فزتِ بطفل وتخلصتِ من زوج..

فلِمَ الحزن؟.. والله إنها لصفقة رابحة.

بعيني «وِصال» ارتسم الاستنكار جليًا؛ لكن «عاليا» أردفت:

- العاطفة الوحيدة التي تستحق أن تبذلي عليها صحتك وجهدك وقلبك هي أن تكوني أمًّا..

أنا أحبّ الأطفال.. ليتَ لي ما لكِ يا وصال.

ألقت كلماتها ثم غادرت غرفة أختها وهي تُنهي ما تبقى من تفاحتها، أمّا «وِصال» فقد انكمشت بمكانها.. تلفّ يديها حول ذراعيها؛ فتبثّها عناقًا حانيًا وترسل إلى فؤادها بعض الأمان في تلك الضمّة، يسيح برأسها أخبار ما مضى من عمرها قبل الزواج؛ فلجَّ بها الشوق إليه لجاجًا طار بعقلها وذهب بألبابها وقد ترامى أمام عينها ذلك النعيم الذي عايشته وأصوات الآمال التي كانت تجلجل في روحها فتزيدها بِشرًا على بِشر، وتبسط في نفسها فرحًا على فرح ويومها كلّه عاليَ الجناح يصدح بالحرية، تمتلئ نفسها فضولًا وتَحنانًا بما تقرأ وتسمع من كلمات عن الحياة الزوجية قد ألبسها الأمل إحدى أرديته فاعتنقت حروفه اعتناق الإيمان وأسكنته نفسها وجوارحها وأفكارها.....

«أخطأتُ!!!»

هكذا صرخت «وِصال» على نفسها وهي تفكّ ذراعيها من حولها وتُسرع إلى هاتف قد اشترته مؤخرًا، تفتح حسابها الذي ما دخلته منذ عامين، أسرعت يدها على أزرار الهاتف، فليدها ذاكرة خاصة بما يحمله قلبها من تخبط..

وصلت أخيرًا إلى ما تريد.. صفحة «زواجي مثالي»

تصفحت آخر المنشورات التي تغلبها الأحلام الوردية، تذكّرت كم مرة قرأت مثل هذه الكلمات على نفس الصفحة من

أعوام مضت، وكم مرة تعلّق قلبها بها حتى ظنتها حقيقة مجردة من أي زيف؛

صرخت بغضبٍ وقهر، وعلى رأس الصفحة كتبت منشورًا...

أنتم السبب..

أنتم أصل الخداع.

ثُمّ غادرت الجروب نهائيًا، أقبل الأب فزعًا على صوت صراخ «وِصال» لكن الأخيرة أغلقت عليها بابها بالمفتاح دون أن تسمح لأحد بالاقتراب منها أو فضّ خلوتها.. فهي تحتاج الآن للصمتِ!

وللصمتِ هنا بوحٌ لا يدركه إلا من احتاج للحظات السكون، تتقلب النفس بين هذيان الماضي ومشكاة المستقبل، وبينهما أخدود يمتلئ ألمًا وذلًا ووحدة؛ يدفع بكل ما يختار الخوف منه وبسببه ولأجله فيه..

ثم تنهال بعدها على الروحِ أمارات الوهن وخبايا الشجن؛ فيرى كل من رأى ويسمع كل من سمع، وتتيقن العيون من ذلك الكائن المحزون النفس والفؤاد وقد استثقلت جوارحه معيشة الخاسرين وتقوقعت روحه على قلبه فأسكنته غرفة من غرف أنينه وآلامه، ثم يمضي جسدًا بلا روح.. بلا نفس.. بلا فؤاد، يتعثر بين أخاديد العابثين لا يقوى على الاستمرار أو البكاء أو الصياح، كلٌ قد ارتحل عنه..

حتى تلك البقيّة الباقية من نفسه غادرته؛ فلم يعد يحتمل أُنسًا ولا ودًا ولا صفاءً ولا نقاءً، فكل النفوس حوله فاسدة..

كل النفوس لا تستحق الحياة ونفسه أولهم!.

هكذا «وِصال» صارت.. ولهذا الطريق تمضي.

***

رآها في ركنها تجلس كالبدرِ ليلة تمامه، حسناء أبيض وجهها كورق الياسمين، مُرسلٌ شعرها على ظهرها كنهرٍ أتى من النعيم يحمل ضوء النجوم في قطراته، وما ينقص وجهها إلّا أن تدبّ به الحياة فترقص على أعتاب عينيها لمعة الاستيقاظ الأولى...

كم يشتاق لرؤيتها حيّة يغلفها الأمان كما كانت من قبل.

أقبل عليها متلهفًا ثم ضمّها إلى صدره وأرسل من جفنيه دمعةً ليست بأولِ دمعة يبلل بها وجهها ولكنها أحرُّ من سابقيها لأنه يذكر مثل وقفته هذه قديمًا وصوت ضحكها يصل إلى مسامعه..

كم يحنّ لصوتها، ضحكها وبكائها، ضجيج فرحها ورنّة حزنها، توّاق هو لكل معنى من معاني روحها؛ همس بحنينٍ:

- آاااهٍ يا وردة.. لو أنكِ تعودين.

دخلت عليه مسئولة الدار تستأذنه الخروج حتى تبدأ في العلاج الطبيعي لـ «وردة» لهذا اليوم، نظر إلى الأخيرة بحزنٍ..

فهو لم يكد ينزل إجازة من الجيش حتى أتى إليها أول ما أتى،

أخذ حقيبته باستسلام ثم جلس بالخارج منتظرًا.

أحسّ بملمسِ الشوك تحت يده.. عرف فؤاده موضع الأذى قبل عينيه، مدّ يده داخل الحقيبة وأخرج منها الورقة الأخيرة، نظر إليها بكرهٍ وغضب، بقدرِ ما أفسدت عليه حياته كره ما فيها ومن كتبها، آذته بما حملته من كلمات وآلام..

أما يكفيه ما فيه لتسقط عليه تلك الأوراق بأحزانها!؟

مرّ بعض الوقت وهو يمسك الورقة بين يديه يقلبها بعينيه ويخشى قلبه قراءتها، لملم شتات نفسه بعد طول تفكير ثم فتحها...

الورقة التاسعة...

اليومَ عاهدني عهدًا وقال.. «الرحمة موجودة»

وأقسَمَ أن رأفتَهُ.. ستكون بقلبي معهودة

وأن ما مضى من بأسه..

سيُنسى ..

ما دمتُ أقدّر مجهوده.

وطلبني لنقضي أمسية وننسى الماضي المشئوم

فخرجتُ معه وقلبي ينبهني..

يزجرني ليوقظني.

لكني رفضتُ الاستماع ..

ومرّ الوقت في استمتاع

عاملني كأميرة .. وبالغ في تدليله
وأطعمني الكثير وأهداني الكثير
لكني اشتهيتُ حلوى مخصوصة؛
فطلبتُها بنفسي من المسؤول
وأكلتها بسعادةٍ كالطفلِ العجول.
وعند العودة أوقفني على قدمي بمنتصف الطريق السريع..
ثم مضى وتركني!
السيارات تُسرع..
وأنا أرتجف!
ناديتُ عليه لكنه أشار لي بالصمت.
انكمشتُ بمكاني ولملمتُ فستاني
عجلات السيارات تصرخ من حولي
وسباب السائقين يصطدم بأذني
سيارة صدمت حقيبتي
وأخرى مزقت حجابي
وثالثة كادت تقطع فستاني
نظرتُ برجاءٍ إليه..
وبالنجدة أُقسِمُ عليه؛
حينها جاءني..

أمسكَني ودفعني
ثم همَس بأذني..
«ما دمتِ تعلمين أن لا مُعين لكِ غيري؛
فلمَ طلبتِ حلواك من النادل؟»
لم أُجِب.. كيف أُجِيب وسؤاله جنون!
وفعلته جنون!
وعند العودة؛
تركني أمام الباب وغادر غاضبًا.
لِمَ الغضب؟
أهي الغيرة أيتها الأوراق!!
أم أنه حب الامتلاك!
دخلتُ ونمتُ.. لا أريد الاستيقاظ.
وكلما أغمضتُ عيني..
رأيت السيارات تصدمني وتهشمني
فأموتُ في النوم مرات ومرات.
فأستيقظ فزعة.
حتى أتت مرة..
أحسستُ حلمًا وكأنه الحقيقة
يؤلمني .. كنارٍ تسري في عظامي

تندفع من جلدي إلى قلبي وأركاني
فتحتُ عينيّ لأصحو من الحلم..
لكنه كان حقيقة..
وجدتُه أمامي وفي يده حديدة
قد احمر لونها من شدة حرارتها وألصقها بفخدي..
ثم رفعها عني؛
صرختُ وأنا أرى جلدي مُحترقًا
حاملًا أحرف اسمه..
لكنه كمم فمي بيده
وأنا أصرخ وأصرخ وأصرخ
ضمّني إلى صدره وبكى
حزنًا علي أم بسببي!
للحق لا أدري.
مازلتُ أصرخ.. وصوتي يتلاشى على أعتاب يده
اقترب من أذني وبصوتٍ باكٍ همس..
«حتى تتذكّري دائما.. أنكِ لي وحدي»
ذكّريني أيتها الأوراق..ولا تنسي أبدًا..
«أنّ يمينَهُ باطل..
وعهدَهُ في الحبّ سراب!»

اجتمعت العبرات بعينِ «مُدثّر» والصرخات في جوفهِ وهو يتخيل صاحبة الكلمات وقد وسمت كالأنعام دون شفقة؛ كوّر الورقة بين يديه بغضبٍ وألم، أسند رأسهُ على يديهِ مُتخبّطًا في تيه ما وقع به.. وما تتحدث به نفسه، ساءت حاله كثيرًا في دقائق وعقله يُرسل إلى فؤاده كلمات الأوراق الماضية..

كأن أنفاسه تتبدد وتتعثر داخله، لا يملك لها شهيقًا ولا زفيرًا!

قام من مكانه وسار مُترنحًا حتى باب الخروج.. يتوق للهواء، لم تعد به طاقة لمزيد حزن ولا لتأنيب قلب.

مرّت به الأرض ومنحنياتها وهو لا يدري كيف يسير ولا إلى أين!

حتى إذا ما انزاح عنه بعض الهَمّ والغمّ؛ أفاق لنفسه فإذا هو أمام بيته، قد ساقته نفسه إليه.

شعر بألمٍ حاد يجري في جسده، تمنى لو يتخلّص من البيت وما فيه وذكرياته، تحامل على نفسه حتى إذا ما استوى أمام بابه؛ جذبه صوت طرق في الشقة المجاورة.

فزع لما سمع وأسقط حقيبتَهُ عن كتفه وأرقـل إلى مصدر الصوت..

فوجده عاملًا يقوم بتكسير بعض الأركان من الحائط، تمالك «مُدثّر» أنفاسه ثم سأله هاتفًا:

- ماذا تفعل يا عم؟

- جاء بي صاحب البيت لأرمم حوائطه.

اتجهت أنظار «مُدثّر» إلى الحائط الذي يجد بداخله الرسائل؛ رآه مهدمًا، عادت أنظاره إلى الرجل باستفهام؛ فأجابه:

- أسقطتُ الحائط كله.. كان به الكثير من التكسير والثقوب وسأعيد ترميمه قريبًا بإذن الله.

وقف «مُدثّر» واجمًا لا يدري ماذا يفعل، سأله الرجل فجأة:

- أين شقتك؟

فوجئ «مُدثّر» بالسؤال فأجاب بسرعة:

- الشقـ الشقـ !!!!!!!

تعثّرت الكلمات كثيرا على أعتاب شفتيه، فلمّا تيقّن أنها لن تقوم لها قائمة؛ أشار بيدهِ إلى الباب المجاور وقد غلبَهُ الحرج.. فاستدرك العامل الموقف وقال وهو يشير للحائط المهدّم:

- رأيتُ في الحائط المقابل له ثقبًا كبيرًا كذلك.. لو أحببتَ أستطيع ترميمه لأجلك.

تمالك «مُدثّر» أنفاسه وقال بهدوء:

- أشكرك.

ثم غادر المكان عائدًا إلى منزله وما إن دخله حتى جلس أرضًا يتقلّب بين أروقة الحزن والسرور لا يدري إلى أيهم يسير!

هل يمضى وينسى؟ أم.....

لا يدري ما خياره الآخر، ماذا بيده غير ترك الأمر!

هل يحكي لبعضِ السكان يسألهم العون؟

يعلم قولهم.. زوج وزوجته؛ ما دخلك أنت؟!

سلاسل قد فُرِضت عن طريق المجتمع لا الشرع، ضيعت حقّ المرأة ونصبت الرجل إلهًا؛ فلا حق لأحدٍ سواه بأن يضع حدًّا لحياة زوجته وطموحها وأحلامها...

هو يشكّلها كيف يشاء.. ويملكها كيفما شاء!

ضرب «مُدثّر» حائطًا جانبه بقبضته.. ثم توالت الضربات حتى أدمت يده، ظل يلهث وهو يلملم أنفاسه إلى صدره وعقله يمرّ بصراعٍ من نوع ما.

مرّت ساعة من الزمان وكلّما سمع جزءًا جديدًا يسقط من الشقة المجاورة؛ أحسّ وكأن السلسلة التي رُبطت حول عنقه بكلماتِ الرسائل تنزاح عنه، لعلّه الاستسلام أو إعادة تقدير الموقف..

أيهما سيريح قلبه في حال التبرير؛ سيركن إليه.

قام من مكانه وأمسك الورقة.. بل كل الأوراق الماضية ثمّ أشعل بهم النار؛ رأى خيالًا في طيات اللهب يتحرك أمامه، يستصرخه أن يوقف الحريق الذي يدمر كيانه؛ غلبته عبرة وهن.. تبعتها دمعة ذل، وبقايا الرماد تتجمّع أمام قدمه تُعلِنها جلية.. أن عهده مع كلماتها

انتهى. أشاح بوجههِ عن موضع الرماد وهمسة ضعيفة تخرج من بينِ شفتيهِ.. «الوداع»!

***

يُلملِم ما تناثر حوله من أكياس فارغة على إثر حركة البيع طوال اليوم، وفي خضمّ انشغاله أتاه صوتها ليوقظ كل حاسّة من حواسه.. الآن تأكد أنها بالفعل تملّكت عليه قلبه واستخلصته لنفسها؛ فبمجرد أن سمع صوتها التفّت جوارحه كلها إليها تكاد تتلقفها لتعانق ذلك الهمس باسمه الذي خرج من بين شفتيها، أعادت همسها:

- عليّ؟

- اؤمري.

مدت إليه يدها بكيس أرز لتُحاسِب عليه لكن يدها انفلتت وسقط منها أرضًا؛ فصاح «عليّ» بسرعةٍ:

- لا عليكِ.. سأحضر غيره.

أوقفته «عاليا» وهي تسأله باهتمام:

- ماذا ستحضر؟

أجاب مُستغربًا:

- كيس أرز آخر.

سألت من جديد:

- فقط؟

تملّكتهُ الحيرة ثم سألها مُستفهمًا:

- وماذا أحضر معه؟!

همّت أن تجيبَه بسرعة.. لكن استوقفت نفسها دقيقة حتى تمتلئ روحها من عبق فكرها؛ فتنظر أرضًا بخجلٍ وهي تهمس بصوتٍ أذاب كلّ جبال كبريائه:

- فرصة أخرى إذا سمحت.

***

« تمرّ الأيام بمرور أحزانها.. وفي بعض الأقوال..

بمرور أفراحها.

لكن القول الصحيح ..

«تمرّ الأيام بمرور شموسها»

تلك هي الحقيقة المجرّدة من أي زيف، فلا الأحزان تطيل الأيام ولا الأفراح تبارك في ساعاتها.

هو يوم.. يبدأ بطلوع الشمس وينتهي بغروبها؛ لذلك لا يجب أن نجعل للحزن على أرواحنا سبيلا، ولا أن نجعل الفرح هو هدفنا من الحياة، الأمر أكبر من ذلك وأشد عمقًا، فقلوبنا تنبض .. نبضًا مُنكسِرًا.. متقطِّعًا.. ذابِلًا، لكنها تنبض..

ومع كل نبضة؛ فرصة جديدة للحياة، وللحرية، والاختيار.

إذًا لمَ لا نقول ..

«تمرّ الحياة بمرور خياراتها»

أليست أشد قوة الآن وإثارة؟

مع تحيات صفحة #ميلاد

أغلقت «وِصال» المنشور وهي تتنفس بقوة وتلقي جسدها للخلف؛ فتعانق خصلات شعرها وسادتها، تسمو روحها وتطير.. فلا شئ يرفع النفس ويجمّلها إلا تلك اللحظات التي تَلِج فيها إلى أفق الحقيقة؛ فتخبو أمارات الضياع وما يتبعها من وهن.

وهاهي الآن منذ أن اشتركت بذلك الجروب المُعجِز، وتتابعه فيما يزيد عن الأسبوعين؛ تتلقى تلك الكلمات اللاتي تشد من أركانها وتُشعرها بقيمة الحياة من حولها، حتى قسوة أيامها لم تعد قاسية كما كانت!

أمعنت النظر طويلًا في سقف غرفتها وهي تمرر يدها على حملها، ما زال صغيرًا لا يتعدى الثلاثة أشهر؛ لذلك لا تجد له كيانًا تتحسّسه وتتصل به بعد، تبثُّه ما تبثُّه وعلى النقيض يدفع هو بداخلها ما يدفع، منفعة غير متبادلة!.. تلك هي العلاقة حتى الآن.

وربما للمرة الأولى منذ حملها تشقّ صفحة وجهها بسمة متلصِّصة تتسلل على استحياءٍ لتَتوسّد شفتيها وتمتدّ إلى صدرها فتقفز بداخله قفزة تُحييه بعد صمت نبضاته الطويل؛ هنالك لملمت بقبضتها ما لملمت من خيال طفلها ورفعته بين يديها هامسة.. «متى أراك؟»

فلربما حينها قد تنمو تلك العاطفة داخلي المسماة بالأمومة، ربما حينها أكون أهلًا لك، لذا.. وإلى أن نلتقي.. كُن بخيرٍ.

عاد عقلها إلى كلمات المنشور من جديد وهي تتذكّر آخره، لم يطل الوقت بها كثيرًا حتى قامت إلى دولابها؛ فأخرجت منه بعض الملابس واتجهت إلى باب غرفتها؛ ففتحته ثم قالت بهدوءٍ لوالدها الذي كان يجلس في أحدِ الأركانِ يقرأ في المُصحف.. «سأذهب لمقابلته».

***

«للسّماءِ هذا المساءِ زئير!»

هكذا حدّث «مُدثِّر» نفسَه وهو يتلقف أولى صرخات الرعد، ثم الثانية .. ثم الثالثة، الغريب أنّ الصوت يقترب من أذنهِ وكأنه يتبعه، توقف مكانه مُتحيّرًا، هنالك وفوق رأسه تمامًا كشّرَت السماء عن أنيابها وغمرته لمعة البرق؛ قفز فزِعًا .. لاهثًا.. مضطربًا، هل قامت القيامة أم هي قيامته وحده؟!

وكأن كلّ الدنيا تعاتبه، كلّ الرسائل موجهة إليه، كلّ الآيات تُتلى عليه!

تلفّت حوله يبحث عن منجى ومنأى.. لكنَّ السماء تأبى عليه الأمان؛ فانهالت من حوله الأمطار كالصواعق تضرب يده وقدمه ورأسه؛ فلمّا وجد حائطًا يستره؛ أطلق بصره إلى تلك الصواعق فوجدها كتلًا من الأوراق تتقاذف يمنة ويسرة، سقطت واحدة

بجانب الحائط، وواحد على بُعد خطوتين، وواحدة جاورت قدمه؛ فانحنى عليها ينظر إليها ولمّا أمسكها؛ احترقت!

فزِعَ لنارها وهي تنبت من لا شيء وتنتهي إلى لا شيء.. فقط رماد تنثره خلفها!

مدّ يده إلى ورقة ثانية .. وثالثة .. وخامسة، كلهم مصيرهم إلى رماد..

عندها أرخى رأسه وأسدل كتفيه مستسلمًا، ثم جلس أرضًا تحت السّماء ينتظر عقابها، يحدّث نفسه حديث الصادقين ويضع على كتفه حلّة النادمين، فهو يعلم أن الأوراق كانت أمانته وهو من حرقها.

هنالِك.. فتح عينه من ذلك الحلم وهو يرى سماء غرفته الرمادية ساكنة لا تتحرك، غلبته عبرة ساخنة عكس أطرافه التي بردت تمامًا من الفزع، لم يحاول إمساك دمعاته أو حتى التوقف، فقط الصمت يغشى كل أركانه وزفير ندمٍ متقطّعٍ يصدح منه.

***

وقَفَتْ ووقفوا جميعًا على أعتابِ القضاء، تخبّطت أقدام «وِصال» لولا أن امتدت يد والدها تجبر اضطرابها، همس في أذنها همسات لكنها أجابته بثباتٍ رافضة الرجوع.

دخلوا حيثما تتنازع كفّتا العدل والظلم ثم جلسوا في حضرتيهما، تتلاشى من حولها علامات المكان وعقلها يدفعها لسؤال واحد.. لماذا أصرّ على حضورها؟!

مرّ بعض الوقت حتى رأت بابًا جانبيًا يُفتح ويخرج منه عسكري يجذب خلفه ما عرفته يومًا بزوجها.

رأته كما لم تره من قبل.. وقد ألبسه الذُل رداءً من خُسر، فلمّا استقرّت عينه عليها؛ أرسل كل عواطفه في مجاري أنفاسه.. فهبّت منه أنّات متقطّعات ومشتعلات بنار الشوق، وصار شهيقه ألمًا وزفيره انكسارًا ومشهده حسرة.

أمّا هي فلم تتحرك من مكانها أو تتحدّث.. فقط تنظر تجاه القفص الحديدي الذي ضمّه وأنفاسها تضطرب ونظراتها تتعثر على أعتابه، يعرقلها الفزع تارة والخوف تارة. نادى مُنادٍ: «محكمة!»؛ فوقف الجميع.

مرّت دقائق حتى وصلها نبأ ما خفي عنها وعلِمَت فيما سُجِن، مالت «عاليا» على أذن أختها وهي تهتف مستنكرة..

يغشّ في البناء!! هذه تهمة زوجك؟!

لم تُجِب «وِصال» ولم تتوقف «عاليا» عن الاستفهام والاستنكار وصوت محامي زوجها ينادي على الشهود، أقبل أحدهم حتى المنصّة ثم بعد القسَم قال مُسترسِلًا ما يشهد ويدين به أمام الله أن «غالِبًا» لم يكن يومًا من الخائنين.

أتى الشاهد الثاني بما أتى به الأول ثم الذي يليه ثم الذي يليه.. كلهم أثبتوا براءة «غالب» من دمِ ضحايا العقار الذي بناه،

حينها لفّت وجهها تجاهه ترقب في عينيه ما لا يراه أو يفهمه غيرها.

لكن نظرة شوق منه حجبت عنها حقيقة ما تصبو إليه؛ فأشاحت بوجهها بعيدًا وقد امتلأت نفسها حيرة.

ارتسمت على وجه المحامي ابتسامة النصر، فهو وحده يعلم أن شهود الجهة الأخرى يفتقِرون إلى أهم ما يميز أي شهادة.. ألا وهو الدليل.

مرّ الوقت وجاء محامي الجهة الأخرى وبعد كثير كلام وخطاب يحرّك به عاطفة القضاء.. نادى على الشهود، وأتوا جميعًا بما لم يأتِ به الأولون من ثباتٍ وأدلّةٍ على نزاهة «غالِب»؛ وبانت كفّة العدل إلى أيّ الفئتين تميل.....

لكن محاميهم أخرج دليلًا لم يكن يتحدّث عنه من قبل وكان تسجيلًا صوتيًا يثبت شراء «غالِب» مُتعمّدًا لمواد بناء لا توافق المعايير التي ينصّ عليها القانون.

نزل دليل المحامي كالصاعقة على رءوس الحاضرين فألجم بعضهم، وهلل بعضهم بعدما أتى الدليل بما لم يأتِ به الأولون والآخرون.. وبانت كفّة العدل إلى أيّ الفئتين تميل.

مرّ الوقت وهي لا تدري عن ما يدور حولها أي شيء، فقط تدفعها الصدمة إلى هاوية التقريع وهي تسأل نفسها.. «أي الكائنات بحق الله هو؟!»

لم تنتبه إلّا على صوت القاضي وهو يسأل «غالِبًا» إن كان يريد إضافة شيء ما؟

لم تستطع أن تنقل عينها إلى موضعهِ، فقط تركت رأسها منحنيًا إلى أسفل غير عابئ لأي شئ آخر حولها ولا يغلفها إلا الصمت.

- وصاااال!

فزِعت وهي تسمع اسمها يصدح بقوة؛ فرفعت رأسها تدفعها الخشية..

فرأته وهو يمسك بأعمدة قفصه يكاد يقسمها وهو يعيد نداءه.. «وِصال»!

ما زال يسكنها الفزع، حاول المحامي التدخل لتهدئة «غالِب»، أعاد القاضي سؤاله مرة ثانية مهددًا أنها الفرصة الأخيرة،

وجاء صوت «غالِب» مُنكسرًا هذه المرة غير عابئ لكلمات من حوله وهو ينادي برجاءٍ.. «وِصاااال.. انظري إلي»

ضرب القاضي على الطاولة أمامه وهو يصرخ بالعسكري المسؤول بجانب «غالِب» حتى يسكته، لكنه أعاد نداءه وصوته أشد رجاءً وأكثر بكاءً ثم تمتدّ يده خارج القفص الحديدي منبسطة تناديها .. « تعالي يا وِصاال.. تعالي.. فقط مدّي يديك.. وِصاااااااال»

حينها نظرت إليه، خاضعة لأمره مُقبلة عليه...

فهدر صوت القاضي.. «تؤجل القضية حتى اليوم العاشر من

الشهر القادم، رُفعت الجلسة»

فصرخ «غالِب» صرخة أسكتت الجميع وهو يهتف.. «رددتُكِ يا وصال.. رددتُكِ يا وِصال.. رددتُك يا وِصـ....»

ولازال يكررها حتى اختفى صوته في غياهب السكون التام خلفه وانتفاضة «وِصال» قد بلغت أشدّها حتى سقطت أرضًا بين أحضان الظلام.

***

في خجلٍ وقف «عليّ» بين يديّ الجبّار، يتذكّر كيف كان سوء أدبه مع الله وهو يتحدّث مع «أم الخير»، ماذا قال؟ وكيف قال؟، يُحسن الظنّ في الله أنّه سيعذر ضعف قلبه، لكن هل سيغفر له؟

استقبل القِبلة، رفع يديه وكبّر؛ فكأنّها المرة الأولى، «الله أكبر» ملء قلبه، ملء روحه، ملء ذنبه، ملء الدماء من جسده!

«الله أكبر» فوق اهتماماته، ورغباته، وأطماعه..

صلّى ركعتين وبكى فيهما كثيرًا، بعدما انتهى ظلّ تساؤلٌ يطرق بقوة فوق رأسه...

هل سجد معي قلبي؟

هل غفر ربي ذنبي؟

هل نزلت عليّ السكينة؟

هل قبِل ربي منّي؟

وهو الذي أعطاني ما تمنيتُ وما حرمني!

ظلّت الأسئلة تحوم برأسه لا تتركه ولا تُمهله، فكفكف دموعه وغادر المسجد وقد قرر أن يُحسن الظنّ بربه؛ فلا يكفّ عن التوبة ولن ييأس من عفو الله عنه، وأمام المسجد لمح «أم الخير» وهي تمرّ في عُجالة يشغلها أمر؛ فأرقل إليها وقد شغله همّها الذي يجهله؛ سألها:

- انتظري يا خالة، إلى أين وما الذي يزعجك هكذا؟

تفاجأت به المرأة لمّا وقع نظرها عليه؛ فابتسمت وأجابته:

- لا شيء يا ولدي، لكن أفكّر في شئوني وأخشى أن أنسى شيئًا.

- تنسين! ماذا ورائك يا خالة؟!

- أخبرتك.. لا شيء مهم، لكن وجب الرحيل من جديد.

- ولِمَ يا خالة!!!

- لأجل الثأر يا ولدي.. لهذا لا نطيل المكوث في أي مكان، يجب أن نرحل وإلا استطاعوا العثور علينا وقتل «أبي الخير».

لم يستطع «عليّ» أن يمنع نفسه من الابتسام وقول:

- لا ترحلي ودعيهم يقتلوه يا خالة.. على الأقل سترتاحين من سوء خلقه.

نظرت له بتعجبٍ لمدةِ دقيقة لكنه استدرك خطأه؛ فقال:

- حدثيني عن الثأر هذا يا خالة؟

تنفست بقوة وهي تجلس على حجر بجانب الحائط ثُمّ مَسحَت وجهها بيديها الاثنتين وهي تُخفي عبرة خائنة تكاد تُفارق ثبات عينها، قالت بعد دقيقة:

- كان نزاعًا بين عائلة زوجي وعائلة عمدة البلد، كلاهما يتقاتلان على محصول الأرض في تلك السنة، وكلاهما لم يعملا بالأرضِ.. لذا تدخل «أبو الخير» لحلّ النزاع خاصة أنّه هو من عمل بها.

- إذًا الأرض ملكه يا خالة؟

- لا لم تكن ملكه، كان يعمل بها فقط، فذهب إليهما مساء يوم الجمعة، بعد صلاة العشاء، وكان قد أرسل إليهم خبرًا أنه يملك دليلًا على أنّ الأرض في الأساس ليست ملكًا لأحدٍ منهما.

- وكيف وصل لهذا الدليل؟

- لا أعرف يا ولدي، لكن المشكلة ليست هنا، المشكلة أنّه لمّا ذهب إلى اللقاء.. وجد ابن العمدة مقتولًا!

فزع «عليّ» من جملة «أم الخير»؛ فهبّ واقفًا يسألها:

- من قتله؟

امتلأت عين «أم الخير» بالماء وهي تُجيبه:

- لم نعلم يا ولدي، ومن يومها وقرر أبناء العمدة أن زوجي هو القاتل، ولنا ثلاثة أعوام نهرب منهم، كل شهرين أو ثلاثة نغيّر محل سكننا.

- وماذا عن أهل زوجك؟

- هم كذلك لا نراهم، لكن نتابعهم بالاتصال كلّ فترة.

- لمَ لا تبقين أكثر هنا؟ فلعلّهم لن يصلوا إليكم هذه المرة؛ ويسلم «أبو الخير» من القتل.

نظرت «أم الخير» إلى «عليّ» طويلًا، همّ لسانها أن يتحرّك؛ فيخبره نبأً لا تملك أمامه إلّا الصبر، لكنّها وأدت حركة لسانها وكبّلته في قوةٍ وصمود، مرّت دقائق حتى تحدثت:

- والآن.. ماذا وراءك أنتَ يا ولدي؟ ماذا تُخفي؟

- والله لا أُخفي شيئًا.. كنتُ قادم إليكِ بالفعل أُنبئكِ خبري.

- وما خبركَ؟

- لقد وافَقَت «عاليا» عليَّ.

***

على الرُغمِ من كبر سنّه إلّا أن «مُصطفى» حشر المُحامي بين عمودين وهو يكاد يخنقه تمامًا وقد تملّك منه الغضب.. كل الغضب، ثم هتف:

- ماذا يعني هذا؟ أخبرني أيها المحامي؟

ومن بين حشرجته خرج صوت المحامي مبحوحًا شبه مكتوم وهو يهمس:

- أخبرتك يا سيّد «مُصطفى» لا أدري.

سدد له الأول لكمة في بطنه وهو يصرخ:

- ماذا تعني بلا أدري.. ألست محاميًا؟ لا تتهرب وتظنني أصدقك.. ما معنى أن يطلقها عند القبض عليه ثم يردها الآن؟

- وكيف لي أن أعلم؟!

- بل تعلم..

قالها ثم انهال ضربًا على جسدِ المحامي في أكثر من موضع حتى صرخ الأخير باستسلام:

- حسنًا.. سأقول، توقف أرجوك، أنا بالفعل لا أعلم لكنه تخمين مني.

- أي تفسير.. سأقبل بأي تفسير.

- أظنه طلقها المرة الأول حتى لا تطلق منه هي عن طريق المحكمة إذا رفعت قضية خلع.

- فسِّر أكثر.

سعل المحامي لمدة دقيقة؛ فخفف «مُصطفى» من قبضته حول جسده وسمح له بحرية الجلوس، أكمل المحامي:

- أرادها في قبضته لكن دون أن يسمح لها بالهرب.. فهي في فترة العدة ولا حاجة لرفع قضية خلع عليه ما دام طلقها صراحة بوجود شهود.

- ولماذا أراد فترة العدّة؟ فيمَ ستفيده؟

- ستعطيه فرصة حتى يخرج.
- وهل كان ضامنًا لبراءته.

زاغت عين المحامي وهو يتلوى قليلًا، فلمّا لم يجد مفرًّا من نظرات «مُصطفى» قال ببعض خجل:

- كان كلّ شيء محكمًا بين يدينا.. الأدلة.. الشهود، كل شيء.
- ثم؟
- ثم كان سيضمن أنها ستبقى في قبضته حتى يخرج ويردها لأنها حامل وفترة عدتها حتى تضع وهذا أعطاه مهلة طويلة أيًا كانت مدة المحاكمة.
- كل ما تقوله مقبول ومُقنع إلا أمرًا واحدًا..
- ما هو؟
- ما دام لا يريدها طوال فترة السجن زوجتة.. بل يريدها طليقته؛ فلماذا ردها اليوم وهو لن يستطيع الخروج؟ ومع ما رأيناه من تغيّر كافة الأدلة فأنا أرى أنه لن يخرج قبل فترة طويلة خاصة أن قضيته لو ثبتت عليه فهناك أرواح زُهقت في عقاره المشئوم!
- لا أدري.. لم يكن ليردها إلا لو كان واثقًا أنّه سيخرج.
- ما معنى ما فعل إذًا؟
- لا أدري.

رفع «مُصطفى» قبضته أمام المحامي؛ فصرخ الأخير وهو يهتف:

- لا أدري السبب.. بحق الله لا أدري، أخبرتك كل شيء صدقني.

***

يمرّ بزوايا الطريق؛ فيتخبّط، ثم يلملم من شأنه ما يلملم، تمرّ دقائق ويمرّ بزوايا طريق؛ فيتخبّط...!

رفع رأسه إلى السماء معتذرًا يرتجف منه الفؤاد ويضطرب، ناحت نفسه نواحًا صامتًا ثم لمعت عيناه لمعة وخفق فؤاده خفقة؛ فأسرع بخطوات لاهثات وتشبّث بالطرقات وعثراتها.. هذه تصعد به وهذه تهبط به حتى إذا ما أتمّ مراده؛ سكنت قدماه أمام بابها، دخل بقوة وضجيج غير معتاد منه، وقف أمامها بترقب وحزن، كانت جالسة مفتوحة العينين تسبح بأحلامها، هتف بها..

«كفاااك.. كفاك يا وردة»

تهدّج صدره وضعفت قدمه فسقط أمامها، رفع رأسه إليها؛ فكأنما تنظر إليه، هتف.. «أحتاج إليك.. أنا جبان دونك»

أمسك يدها ووضعها على رأسه، حرّكها برقه وهو يستشعر منها أنها تهدئه، أمسك يدها الثانية ووضعها على كتفه، رفعها ووضعها.. رفعها ووضعها.. رفعها ووضعها، مراتٍ ومرات.. ومن يراه من بعيد يظنها تربت على كتفه حنينًا إليه وتمسح على رأسه حنانًا عليه، ظلّ على حاله دقائق معدودات ثم قام وأعاد يدها إلى موضعها،

أحضر كرسيًا ووضعه أمامها ثم جلس عليه، نظر إليها بقوة، حاول التحدّث فأحسّ من صوته انكسارًا؛ فصمت حتى أيقن من نفسه ثباتًا وقوة؛ قال.. «يا ويلي من الله يا وردة»

خرس وهو ينظر إليها وكأنه ينتظر منها إجابة، ثم أكمل..

«ضيعتكِ وضيعتُ الأمانة.. فياويلي من الله»

حاولت دمعة أن تجنح بعيدًا عن عينه؛ فتتحرر، لكنه وأدها بمطلعها وهمس.. «هل لمثلي من توبة؟»

خرج صوت الهاتف ليقطع عنه ذلك الحديث الأُحادي الاتجاه، تجاهله مرة واثنتان مثل ما فعل طوال يومه، فلمّا عاد؛ مستسلمًا إليه قام..

- أينَ أنت يا رجل؟ لم لا ترد؟!
- .....
- مدثر لِمَ لا تجيب؟
- أنا معك يا راشد.. ما الأمر؟
- لو أنّك أجبت هاتفك طول اليوم لعلِمت.. بواب العمارة لمّا لم تُجب على اتصاله حدثني أنا...
- لماذا؟
- ليخبرني أن والدنا ينتظرك
- أيـ يـ يـ يـ يـ يـ
- اهدأ يا أخي.. سأخبرك لكن عدني أن لا تذهب إليه وحدك

- .....

- عدني.. وإلا سآتي بنفسي إليك.

التفّ «مُدثِّر» تِجاه «وردة» الساكنة أمامه نظر لها بحنانٍ ثم نظر إلى الهاتف بين يده بشفقة.. لحظات وقال:

- أعدك.

- هو بالاستراحة المجاورة للبيت يا أخي ينتظرك غدًا مساءً.

***

«رددتُك يا وصال.. رددتُك يا وصال» ما زالت كلمته ترد في رأسها حتى كادت تهلك روحها، شهقت بقوة ثم فتحت عينيها؛ فرأت «عاليا» على رأسها وقد فزع وجهها؛ أسرعت إليها وهي تضمها إلى صدرها في حنانٍ لم تره منها من قبل ثم انحنت تجاه حمل «وِصال» وحدّثته بعتابٍ لطيف.. «لا تخيفنا ثانية أيها الولد.. أسمعت؟»

أفاقت «وِصال» من تتبع تصرفات أختها الغريبة وهي تسأل:

- أين أبي؟

أجابت «عاليا» بغير اهتمام:

- لا أدري.

حاولت «وِصال» أن تنتصب فشعرت ببعض الوهن؛ فأصرّت أختها عليها بالصبر حتى يعود والدهما، مرّ الوقت ثم دخل «مُصطفى» بوجهٍ حزينٍ مهموم، رفع رأسه تجاه «وِصال».. همس سائلًا:

- أنت بخير؟
- أفضل.
- إذًا هيا بنا.

غادروا جميعًا أرض القضاء بنفوسٍ متخبّطة لم تكد تتماسك حتى رأوا «غالِبًا» وهو يساق إلى عربة الترحيلات، تحجّرت الأقدام وباب العربة يُفتح؛ فيظهر باطنها خاليًا من أي حياة إلّا الحياة الداخلة إليه، وقبل أن يُغلَق الباب على السجين.. خرج من بين الجموع رجلًا ضخمًا تراه كالشجرة المحترقة تخرج منها غصون الدخان، ينتصب هو بين العساكر واقفًا؛ فكأنهم من طول قامته قعودًا، يجرّ الغضب جرًا وهو يصرخ... «قتلتَ أسرتي أيها الغشاش.. أيها الوضيع سأنتقم منك.. والله لأنتقم منك»

تكالب عليه العسكر كلهم حتى سائق عربة الترحيلات لم يجد بدًا من النزول والتدخل للتصدي للرجل، خفّت قوته من كثرتهم وهدأت غضبته من سطوتهم، سقط أرضًا بجانب العربة وهو يئن أنين المحزونين ويضع التراب على رأسه نادبًا زوجته وطفليه ضحايا العقار المنهار، تراخت قبضة العسكر من حوله وقد وقر في قلوبهم الحزن عليه ولأجله، فلمّا أعطوه ظهورهم؛ قفز قفزة قوية وهو يلقي بخبيئة كان قد أخفاها طيّات ثيابه، ألقاها بكل قوته داخل العربة ثم أغلق الباب وفرّ هاربًا.

مرّ الأمر سريعًا، انقسم العسكر بين مطارد للرجل وبين من يحاول فتح باب العربة، كلّ هذا والدهشة والخوف قد تملّكت من «وِصال» وأهلها، وقبل أن تخرج هي من صدمتها دوى الانفجار!

انفجار قوي داخل عربة الترحيلات مما جعلها تتصدع داخليا وينتج عنها ضغط قويّ؛ دفع بكل من حاوطها أرضًا وبقوة.

تحامل «مُصطفى» وهو يقترب من ابنتيه يتحسس وجهيهما، رفع رأسه إلى عربة الترحيلات وقد علم أن خبيئة الرجل لم تكن إلا قنبلة موجهة إلى «غالِب»، ومع رؤيته لآثارها أيقن أن زوج ابنته قد هلَكَ تمامًا.

أفاقت «عاليا» وهي تتألم من أثر السقطة، حاولوا إيقاظ «وِصال» لكنها لم تتحرك، صرخت الأولى وهي تشير إلى بركة دماء تتكون تحت أختها، شهقت بقوة وهي تهتف.. « الطفل!».

وبقى «مُصطفى» صامتًا لا يقوى على النطق..

بدأت ابنته يومها مطلقة ذات ولد.. ثم انتهت إلى أرملة دون ولد!

فما أضعف البدايات وما أقسى النهايات!!!

وما الفراق إلا أن تشعر النفوس الباقية بمسّ الفناء وقسوة الذكرى..

عندها يتمزق الفؤاد أشلاء؛ لهذا.. على من تَفقّه في الأحزانِ ودروبها أن يكون على دراية..

من أن العزاء يكون في من بقى وليس من رحل!

«نعزّيكم على الحياةِ.. لا على الموتِ !»

وقف «مُصطفى» على أعتاب المشفى مُتخبّط النفس، متزلزل الأقدام، وقد اتخذ زاوية مظلمة صديقة له، فهو يبثّ أركانها حديثًا طويلًا، تتخلله العبرات تارة والآهات تارة، يئن كجريحٍ ويصرخ كجارحٍ، لا يستطيع أن يلملم من شأنه مقدار ما يستفيق به، ولا يذكر من حديث الأطباء إلّا لمحات من القول..

« نزفت الكثير.... حالتها خطرة..... لا نعدكم بشئ»

فها هو الآن تُدَق في صدره مسامير الندم والحزن والضياع، فقط يهمهم بكلماتٍ ليست كالكلمات، بل قطع من أحرف متناثرات..

ظل كذلك حتى غلبته ظُلمة العين وغشاوة العقل؛ فسقط ونام.

أفاق على قطراتٍ من ماءٍ تُصبّ على رأسه صبًّا مسترسلًا؛ فهبّ فزعًا وهو يرى وجه «عاليا» من فوقه ينبض قهرًا وحزنًا، تتفلّت منها العبرات وتطرح شفتيها الأنّات؛ ففزع «مُصطفى» لمشهدها فزعة كادت تُسكت قلبه سكتة الكَفَنِ!

قالت «عاليا» من بين دموعها وشهيقها.. «مات طفلها»

فهمس «مُصطفى» بخوف.. «وطفلتي.. ماذا بها؟»

رفعت رأسها مستنكرة اهتمامه الوحيد بـ«وِصَال» لكنها أجابت وهي تبتعد عائدة.. «لازالت بخطر»

تكوّم أرضًا يرتجف، لا يدري ما يحدث؟

يتمنى الصراخ في كل شيء من حوله... «ماذا بعدُ؟.. ماذا بعدُ؟»

مرّت ساعة، وصلت «أم الخير» متأخرة قليلًا عن ما أرادت، وجدت «مُصطفى» بالاستراحة الخارجية؛ فاتجهت إليه، نظر لها أول ما نظر بتعجبٍ لم يستمر ثوانٍ حتى تلاشى بعدما سألته عن حاله ابنته، حاول التحدّث لكن الكلمات تعثّرت على شفتيه فاستعان بيده ليشرح لـها.. لكن يده صارت تتحرّك بعشوائية وتخبّط، فلا الصوت أفاد ولا اليد! حزِنت لحاله وهي تراه يضم يده إلى جنبيه ثانية باستسلام ويهمهم بكلمات غير مفهومة، احترمت صمته وحزنه، قامت إلى مسئولة الاستقبال واستعلمت منها عن أخبار «وِصال» فلمّا علِمتها؛ عادت إليه.. قالت بعد فترة:

- ما دام لك أكثر من قلب في هذه الدنيا؛ فستتألم.

لم يُجِب عليها أو تتغير نظرة القهر بعينه، سكتت هي، لا تدري لمَ أسرعت إلى المستشفى مع «علي» أول ما عرفت الخبر؟! مع أنها لا تسمح لقلبها أن يتعلّق بأحد ممن تعرفهم طوال حياتها، تعلم أنها لا تطيل المكوث وأنَّ الفراق لا بد آت.. لكنّ هذه المرة كل الشخوص من حولها تستجلب من داخلها احتياجًا لازالت بعد كلّ هذه السنين تحاول إخفاءه، احتياج الأمان!

نفضَت عن رأسها الأفكار وهي تهمس إلى «مُصطفى» المُنهزم أمامها:

- تَماسك لأنّكَ إن لم تَفعل؛ فمن سيفعل؟

نظر لها باستفهام؛ فأجابت سؤال عينه:

- من سيتماسك من أجل وصال إن لم تفعلها أنت؟

لم يبقَ لها غيرك.

همّ بإجابة سؤالها بكلمةٍ ما لكن نداء مسئولة الاستقبال عليه أخرجه من ما فيه؛ فهبَّ إليها مُلبِّيًا، جاءته بُشرى خروج ابنته من العمليات وحالتها مستقرة، تهاوى على الأرضِ ساجدًا لله شكرًا، قام بعدها وقد التمعت عيناه والخطى منه تهرب إليها.. إلى ابَنته.

بقيت «أم الخير» خلفه لا تتحرك، ودَتْ لو تسرع إليها هي الأخرى قفزًا لكنها تعلم أنه وحده الأحق بقربها الآن، إذًا لا يحل لها أن تزاحمه فيها.

عادت إلى مكانها الذي تركته منذ دقائق وقررت الانتظار لبعض الوقت، من خلفها أتى صوت رجل تصحبه مسحة ألم...

«أنتِ جارة الأستاذ مصطفى أليس كذلك؟.. أحتاجك في خدمة»

***

وقفَ أمامها مذهولًا وهو يتلفّت يُمنة ويُسرة، سأل باهتمامٍ حقيقي:

- كيف حالها الآن؟

- خرجت من العمليات وننتظر إفاقتها.

- إذًا لم تعلم بعد بوفاة زوجها وموت حملها؟!

اضطربت «عاليا» قليلًا من كلمته الأخيرة، همست بحزن:

- ليس بعد.

صمت طويلًا احترامًا لحزنها لكنها تنفّست بقوةٍ ثم سألته:

- «عليّ».. متى ستأتي للتقدّم لي؟

نظر لها باستهجان واستنكار.. فهي تعلم أنه يعدّ الثواني ليكون بقربها، أجاب:

- وظروف أختك؟!

- ماذا بها؟

استغرب سؤالها.. فاستجمع من شجاعته الكثير ثم قال:

- يا «عاليا» كيف أتقدّم لوالدك في ظلّ ما يمرّ به، والله إني لأخشى أن يراني الآن؛ فيطردني أو يغضب علي غضبة لا يوافق بعدها على خطبتنا أبدًا.

رفعَت كتفيها بضيقٍ ثم قالت:

- حسنًا، من الجيد أنك لم تفعل، فلعلّي أغيّر رأيي.

لكنه أسرع إلى يدها فجذبها وهو يقبض عليها قبضة أنين ثم همس:

- لا تقوليها ثانية يا حبّة القلب.. رجاءً لا تفعلي، والله ما قصدتُ إلّا خيرًا.

***

في صباح اليوم التالي جلست عاليا بجانبِ أختها تلحّ عليها بسؤال، فلمّا يئست «وِصال» منها؛ استسلمت لها، اقتربت منها «عاليا» ثم همست:

- كيف كان الموت؟

نظرت «وِصال» إليها باستهجانٍ واستنكار لكن أختها حرّكت حاجبها بإصرارٍ وهي تقول:

- الطبيب أخبرنا أن قلبك توقف لمدة ثلاثين ثانية.. فلِمَ هذه النظرة؟!

بالإضافة أنك عند إصابتك أمام المحكمة كنتِ فعلًا على مشارف الموت.. لذلك؛ أخبريني يا أختي.. كيف هو الموت؟

لم تستطع «وِصال» أن تُخفي حنقها من سؤال أختها، صمتت طويلًا ثم قالت بصوتٍ ضعيف:

- مثل الحياة.

- وصال لا تمزحي.. كيف هو الموت؟

- أخبرتكِ.. مثل الحياة، نتوقع أسوء لحظات حياتنا ويستقر بقلوبنا أن الموت سيفوقها قسوة وظلامًا وخوفًا..

نتوقعه مرعبًا.. مؤلمًا، حالة من الذعر والتخبّط في مواجهة المجهول...

اضطربت «عاليا» من كلمات أختها، استجمعت أنفاسها ثم قالت:

- ما حكيتِه كان التوقع.. فماذا كان شعورك فعلًا عند مواجهته؟

نظرت وصال إليها بخوفٍ وتزلزل صوتها وهي تهمس:

- الوِحدة.. لا أكثر ولا أقل.

همّت «عاليا» بالتحدّث حينما جاء طرق خفيف على باب الغرفة، علا صوت «وِصال» سامحًا للقادِم بالدخول، دلفت الضيفة التي لم تكن إلّا «أم الخير» فوقع نظرها أول ما وقع على «مُصطفى» وقد أسند رأسه بجوار قدم ابنته وباقي جسده مستقر على أحد الكراسي ويده ممتدة حتى يد ابنته تضمها بحنان وقد رحل إلى النوم، ابتسمت «وِصال» لها وهي تهمس:

- حاولتُ جذبها لكنه لم يسمح لي.

نظرت لها «أم الخير» بحزنٍ جارفٍ وهي تمنع عبرة ما أن تفضح ما بصدرها من قهرٍ لأجلها، قالت بصوت متهدّج:

- كيف أنتِ اليوم؟

أحسّت «وِصال» بتلك النبرة الخفية في صوت ضيفتها، أجابت:

- بخير.. أظن ذلك، أو لعلّها آثار المخدّر.

ابتسمت «أم الخير» لمقولتها وهي تُقبل عليها تضمها ضمّة قوية، تبثّ فيها ما تبثّ، فلمّا أحسّت من نفسها ضُعفًا بجوارِ «وِصال»؛ ابتعدت قليلًا وهي تخفي عينها الباكية عنها وتقول:

- أنا مضطرة للرحيل.

- لكنك لم تجلسي حتى.

- مضطرة يا حبيبتي.. أردت زيارتك قبل أن أضع الخضار على الطريق، والآن يجب أن أرحل، لا أستطيع التأخر أكثر فيستيقظ «أبو الخير» ولا يجدني.

- حسنًا، لا مشكلة.. أشكركِ على القدوم.

وقبل أن ترحل «أم الخير» صدرت منها آهة تذكّر وهي تفتح حقيبة بلاستيكية معها لتخرج منها ظرفًا مغلقًا وتقدّمه إلى «وِصال» قائلة:

- كنتُ سأنسى.. بالأمسِ أتى رجل بعد صعود والدك لرؤيتك واقترب مني قائلًا أنه محامي «غالِب» رحمه الله، ثم قدّم إلي هذا الظرف قائلًا أنه حاول أن يسلمه كثيرًا لوالدك بعد أيام من حبسِ «غالِب» لكن والدك رفض استلامه؛ لذلك طلب مني إيصاله لك.

لم تخفَ عن «أم الخير» تلك القشعريرة التي تملّكت «وِصال» وهي تُمسِك بالمظروف بين يديها؛ لكنّها لم تملك أن تفعل أكثر من أن تقبّلها على جبهتها وهي تدعو الله لها بالعافية والرضا ثم ارتحلت.

بقيت «وِصال» تنظر إلى الظرف بفزعٍ، مرّت الدقائق عليها وهي لا تقوى على الحراك، بأيدٍ مرتعشة فتحته ثم وضعت الورقة الوحيدة التي حوته أمامها وعيناها تقرأ ما سطره «غالِب» من أجلها....

«زوجتي...

إنّه من الصعبِ جدًا.. أن يصبح الرجل منا صالحًا،

في الحقيقةِ.. بينما يكبر المرء يصبح من الأصعبِ معرفة.. كيف يكون الرجل صالحًا؟

ومع ذلك.. فإنّه من المهمِ جدًا أن نحاول على الأقل ونبذل في سبيل صلاحنا كل الجهد.

أرجوكِ تذكّري دائمًا.. «أني راجل صالح»

رجل .. يتمنى أن يعيش حياته بصورة صحيحة مع زوجته التي تمثّل له كل شئ ، وهو لأجلها سيصبح أي شئ.

أعلم أنكِ غاضبة مني لأني طلقتك، هل تظنين يا حبيبة أني أتقبل حقيقة خسرانك؟

قلبي لا يستطيع السماح لكِ أبدًا بالمغادرة، لكنه بالفعل أطلق سراحك.. ولهذا تعذّب..

مع كل محاكمة لي أنتظر أن أراك ، أتلهف لعينيكِ، يصعب عليّ فقدك كل يوم وساعة.

أجلس بمحاكمتي وأترقب كل الوجوه حولي، كل داخلٍ وخارجٍ...

لعلّي ألمح بسمة منكِ في شفتين ما،أو لون عينيك يحملهم وجهٌ ما،أو صوتًا كصوتك مُحبّأ في جسدٍ آخر لا أعرفه..

وفي كل مرة أبحث عنك؛ لا أجدك!

فلِمَ تخليتِ عنّي؟

وإن كنتِ غاضبة من بُعدي..

فأنا لم أغادر إلا وأنا أعلم أن لديك جزءًا مني يذكّركِ بي..

أما أنا فدائمًا وحدي.

حبيبتي.. تعالي لُمقابلتي أرجوكِ،اشتقتُ إليكِ أنت وابني، تعالي يا وِصال..

فأنت منّي ولي.. ولن يفرقنا شئ، حتى قبري؛ لأجلكِ صنعته يتسع لشخصين.

أنتِ لي يا وِصال ما حييتِ..

لا تتأخري.. فقلبي ينتظرك.»

أنهت القراءة وصدرها يعلو ويهبط، شهيقها يتسارع وزفيرها يختنق، ذرفت بعض العبرات، مرّت بها دقائق.. فلمّا أفاقت مِنْ ما هي فيه؛ وضعت الظرف داخل حقيبتها وأزاحتها بعيدًا عنها، وكأنها تخشى خروج شبح منه، ظلّت مضطربة لبعضِ الوقت، تلفّتت حولها، والدها نائم وأختها مُنشغِلة بهاتفها، بقيت فترة في صمتٍ حتى مدت يدها إلى هاتفها المحمول وفتحت الصفحة التي تتابعها بكثرةٍ مؤخرًا... «ميلاد روح»

فلمّا فتحتها؛ وقعت عيناها أول ما وقعت على كلماتٍ ...

«بعد فترةٍ طويلةٍ من المكوثِ في الظلام؛ ستكون أول خطوة للعبور إلى الضوء هي الأصعب على الإطلاق، لذلك؛ اغتنمه حينما يظهر لك...

واعلم أن الضوء لا يأتي إلا لمن يستحق.

مع تحيات صفحة #ميلاد

وبمجرّد أن أنهت القراءة؛ مدّت يدها إلى حقيبتها وأخرجت منها المظروف، نظرت إليه وكأنه قيد يربطها بكل ما يوهنها ويُضعفها، كلّ ما يُمثّل لها ألمًا وحزنًا، خوفًا وفزعًا، بعد دقيقة استجمعت شجاعتها ومزّقته دون إطالة أو تفكير، ثُمَّ ألقته بسلّة القمامة التي شاء القدر أن تتوسّط بقعة الضوء الوحيدة المُتسللة على استحياءٍ عبر النافذة!

***

تحامل على أقدامه كثيرًا حتى تسير به حيث ينتظره والده، يتهرّب منه كهربهِ من الأحزان، تتثاقل الخطوات، وتتناثر الزفرات، وتتقافز النبضات، كلٌ منه في قلقٍ واضطراب.

وبينما هو يسير في مُنتصفِ الطريق لا يدري شيئًا عن موضعه من جانبيه؛ رأى رجلًا لو لبِس معنى الذلّ لفظًا ما لبِس غير اسمه، ولو كان للهوانِ رسمًا ما رآه في غير رسمه؛ وجده مستقرًا بين يدي إمام المسجد، يبكي ألمًا وخسرانًا؛ فأحسّ فيه معرفة وتبيانًا، فلمّا علِمَ

أنه والده؛ اقترب منه فرأى الأحزان ترتسم على وجهه، وعلامات الفقر تختال على ملابسه، أمّا شفتاه فهي تردد خلف الإمام.. «تبتُ إلى الله.. تبتُ إلى الله».

فوقف «مُدثِّر» ساكنًا لا يتحرّك، بل لا يقوى على الحراك، التفت والده تجاهه، فلمّا علمه؛ ضمّه ثم دفعه عنه لينظر إلى وجهه، تحسسه بأنامل مرتعشات، زفر بقوة وهو يرفع يدي «مُدثِّر» إلى وجهه فيضرب به جانبيه، صفع نفسه صفعتين قبل أن ينتبه «مُدثِّر» لوالده وما يفعل، اندفع الإمام يجذب الوالد تجاهه وينظر إلى ابنه نظرات غضب وهو يهتف.. «اتقِ الله يا بني.. أتضرب والدك؟»

نقل «مُدثِّر» عينه بين والده والإمام، احمرّ وجهه، جزّ على أسنانه، فتح شفتيه ليرد، لكن يد والده كانت حاجزًا بينه وبين صوته وهو يدفعه داخل أحضانه ثانية ويلتفت تجاه الإمام هاتفًا والدمعات تملأ عينيه.. « هو منّي وأنا منه.. هو منّي وأنا منه».

تخلّص «مُدثِّر» من قبضة والده ثم جذبه من يده دون أي كلام، تاركًا الإمام خلفه صامتًا واجمًا، سارا حتى وصلا إلى الاستراحة بجانبِ المنزل، اتخذ والده طريق البيت لكن «مُدثِّر» منعه، نظر والده إليه بحزنٍ وهو يهمس:

- أشتاق لمنزلي.. أتمنعني عنه؟
- أجل أمنعك.

- أشتاق لأركانهِ وكل ما فيه وكل من فيه.
- توقف عن تلك الكلمات.
- دعني أصعد.
- لن أفعل.
- دعني أصعد وسأنفذ طلبكم الأخير.

لمعت عين «مُدثِّر» فور سماعه كلمات والده الأخيرة، نظر تجاهه ثم اقترب منه حتى وقف أمامه تمامًا وهو يسأله مُستنكرًا:

- وما سبب تغير رأيك.
- أحب أن أحتفظ بالسبب لنفسي.

أمسك «مُدثِّر» ذراع والده وضغط عليها بقوة وهو يتبعها بظراتٍ محذّرة هامسًا:

- بمجردِ نزولنا ستذهب فورًا للتنفيذ؟
- اتفقنا.. دعنا نصعد فالشوق يقتلني.

أحسّ «مُدثِّر» بالألمِ يتملّك منه وهو يسمع كلمة والده الأخيرة، يعلم جيدًا سبب صعوده، ويعلم ما سيفعله بمجرد أن يرتد خائب الرجاء، يعلم كل شئ لكنه لن يحكي شيئًا أو يجيب على شيء.. فلا أحد يستحق الإيضاح.

وقف البواب أمام «مُدثِّر» مستنكرًا سماحه بدخول والده معه لكن «مُدثِّر» طمأنه بحركة يده ورأسه؛ فعاد الأخير إلى مكانه

مُتململًا وهو يتابع الاثنين بنظرهِ حتى غابا عن عينهِ؛ حينها أخرج هاتفه وطلب رقمًا خارجيًا.

وصل «مُدثِّر» يتبعه والده إلى باب منزله، جذب الأخير المفتاح من بين يدي الأول ووضعه بقوةٍ داخل موضعه المخصصِ له ثم أداره، دخلا معًا.. أغلق «مُدثِّر» الباب خلفه أمّا والده فقد ظلّ يدخل الغرفة وراء الغرفة وأنفاسه تتسارع، فلمّا وجد غرفها كلها خاوية؛ التفت تجاه «مُدثِّر» وانقضّ عليه وهو يصرخ:

- أيها الخائن!

دفعه ابنه دفعة بسيطة وهو يتلاشى تلك الانقضاضة ويُمسك يد والده قائلًا:

- توقّف حتى لا تؤذي نفسك.

- لماذا بقيتَ هنا؟ «وردة» و «راشد» رحلا وأنت لا.. لماذا؟

- لا يخصّك من الأمر شيء.

- لم ترحل حتى تتم الخدعة عليّ وتوهمني أنّها هنا.. أليس كذلك؟

- أي خدعة؟ كفاك تخيلات.

وثب والده عليه وثبة وهو يقذفه بمزهرية من البلاستيك، أصابت كتف «مُدثِّر» لكن لم تصنع به الأثر الذي أراده والده من الأذى، فصرخ غاضبًا:

- أنت أسوأهم.. أعلم أنهما معًا، إنما أنت.. أنت يا من تتصنع

البراءة أكثرهم سوءًا.

- لا شيطان هنا سواك.. كفاكَ خداعًا لنفسك وظلمًا لغيرك.
- تأدّب يا عديم الأدب.
- ولِمَ أتأدّب معك وأنت لا تستحق الأدب؟
- أينَ هم؟
- بعيدًا عن يديك.
- لا تستطيع حجبهم عنّي.. بالقانون؛ أنا أقرب إليهم منك.
- والله أقرب إليهم مني ومنك.
- لِمَ؟ هل ماتوا كأمك؟

لم يستطع «مُدثِّر» الرد وقد استجلب والده ذكرى الألم الأكبر لابنه؛ فتثاقلت عليه الأحرف والكلمات؛ فأضاف والده بتهكّم:

- هل أزعجتك يا بني الغالي بذكرى أمك الراحلة!

لم يستطع «مُدثِّر» التعبير.. فهنا أمام تلك الذكرى يفقد نفسه وروحه وجسده، بل ربما ينسى أن له قلبًا؛ فقد ماتت الدنيا بموتها.

اقترب والده منه، همس بأذنه.. ستبقى دائمًا ضعيفًا بسببها؛ همّ «مُدثِّر» بالرد لكن الكلمات انهارت على شفتيه ولم تقم لها قائمة، فقد نزع عنه والده رداء الثقة بكلمة واحدة لكنها تحمل له الكثير من المعاني.

التفّ والده حوله وهو يضرب بيديه على صدرهِ مُصطنعًا الحزن هاتفًا:

- آسف يا بني.. لعلّ كِبر سني هو من أنساني أنّك لا تُحسِن الكلام في بعض الأحيان.

رفع «مُدثِّر» رأسه إليه وشهقاته تتفلّت منه ليُجيبه:

- بلـلـلـ ل ل ل... أنـس س س ستك أنككككك جبببببببببببان.

أنهى جملته وهو يشهق بقوةٍ؛ فمدّ يده تجاه زجاجة ماء قريبة ليدفع ما بداخلها إلى داخله، ومن خلفه اقترب منه والده بخطواتٍ صامتات وعلى الحائط يتساقط ظلّه مُتخِذًا انحناءات مخفية؛ فكأن جسده بشر وظلّه شيطان! من بعيدٍ تراه جسدًا يُقبل بحنانٍ تجاه ولده، فإذا رأيتَ وجهه علِمت حقيقة تلك الأبوة المزيفة، وتتجلّى كلّ المعاني وتنقشع غيم الأماني حينما تقع العين على ذلك السكّين الذي يسكن بين يدي والده كهديةٍ مغلّفة بالحب لِتُسلّم بعد غياب طويل، وتمّ الأمر بطعنةٍ من الخلف ثم أُغلِق الباب بالمفتاح من الخارج وصوت خطواتٍ مهرولات يصدح هربًا بالاتجاه المُعاكس.

***

تراها من بعيدٍ تسير بانكسار.. وكأنها أحزان الأرض تمشي على ظهرها، تخرج منها الكلمات لا تتعدى كونها همسات قليلات، إمّا لطلبٍ أو سؤالٍ عابرٍ أو نسيم زفرات، فقط «وِصال» لكن دون أي معنى من معانيها!

وصلوا جميعًا إلى البيتِ فجلسوا واستراحوا، أمّا هي فاستأذنت منهم للدخول غرفتها، أو لم تفعل، حسنًا.. لعلّها أرادت ولم تتح لها الفرصة، فقط قامت ودخلت وأغلقت، حدث من ثلاث كلمات لم يهتف لسانها فيهم بشيء!

جلس «مُصطفى» بمكانهِ وقد تملّكه الأسى وتقطّعت به الأحزان، أما «عاليا» فقد انشغلت بهاتفها ومراسلاتها، شعر الأب بأركان بيته تضيق عليه، تخنقه، تذيب البقية الباقية من الهواء وتُحيلها نارًا تلهب الصدر والأعضاء؛ هبّ من مكانهِ.. لا يقوى على المكوثِ أكثر، يحتاج لبعضِ الهواء، يحتاج أن يستعيد جزءًا من نفسه ليقف بجوار فتاته الكبرى، يحتاج من يؤمّن قلبه؛ فيؤمّن هو روحها، سار باتجاهِ الباب.. نادته «عاليا» مُتسائلة -ولربما للمرة الأولى- إلى أين يذهب؟، أخبرها عن ذهابه للجلوس مع صديقٍ له على استراحة قريبة، ثم سألها بدوره عن سبب الاهتمام لكنها كانت قد عادت للانتباه إلى شاشة هاتفها؛ ففتح الباب وخرج.

سار بطريقهِ متلكئًا وهو يفكر بأمرِ ابنته وصدره يتقطّع عليها حزنًا وحسرة، لكنّ روحه تنتفض بمجرد تذكّره أن مسئولية ابنته قد عادت إليه ثانية، فمنذ سنوات بعدما ماتت زوجته صار شغله الشاغل أن يطمئن على بناته، وتهدأ نفسه أكثر حينما يوقن باستقرارهم في معيّة رجال سيكونون لهم خير سند في هذه الدنيا.. فما المرأة في هذه الحياة بدون رجل!

وبمجرّد أن وصل إلى الاستراحة؛ وجد «عليّا» يقف على أعتابها وقد بدا الاضطراب جليًّا على وجهه، فلمّا شاهد «مُصطفى» أرقل إليه مُتلهفًا عليه؛ فعلم الأب حينها أن «عليّا» لم يأتِ إلّا له ولم يقف وقفته تلك إلّا لأجله؛ فسلّما على بعضيهما ثم طال بينهما الحديث.

***

صوت تحطّم وهتاف بعض الرجال، أحدهم يناديه باسمه، حاول الإجابة لكن غيمة سوداء تحول بين عقله وما حوله، بضع قطراتٍ من ماء بارد وجدت طريقها إلى وجهه وعينه؛ فأزاحت الغشاوة، حرّكه أحدهم وهو يسأل بجزع:

- أنتَ بخير؟ أجبني يا بني أرجوك.. أنت بخير؟

من صوته الجزع علم أنه البواب، مدّ يده تجاه الجرح في كتفه؛ أحسّ بالألم لكنه أخفاه حتى لا يفزع البواب أكثر من ذلك، تحامل على نفسه وأجاب هامسًا:

- أنا بخير.. لا تقلق علي.

وضع البواب هاتفًا على أذن «مُدثِّر» ولم يقل شيئًا، وجاء صوت «راشِد» وقد ظهر البكاء جليًا في أحرفه وهو يهتف معاتبًا:

- أخبرتك أن لا تصعد به يا أخي.

تحامل «مُدثِّر» على نفسه أكثر وأكثر وهو يجيب:

- كان سيفعلها يا أخي.. كان سينفذ شرطنا أخيرًا.

- والآن؟ لم نصل معه لشيء وكدتُ أخسرك، كيف وثقتَ به؟

قالها «راشِد» وقد اختنق صوته بالعبراتِ؛ فسكت، لم يخرجه من صمته إلا شهقة خرجت منه وهو يسأل «مُدثِّر» بجزع:

- هل أخبرته شيئًا؟

- لا بالطبع.

قالها «مُدثِّر» بسرعةٍ وثقةٍ وعينه تتنقل حوله بعشوائية حتى وقعت على محفظته وقد تناثرت محتوياتها أرضًا؛ سقط الهاتف من يده فتلقفه البواب وهو ينادي عليه مستفسرًا رد فعله الأخير، لكن «مُدثِّر» لم ينتبه لأي شيء غير محفظته وهو يسقط بجانبها أرضًا يُلملم محتوياتها بفزعٍ وخوف وكل أركانه تهتز وهو يرى أكثر من إيصال مُبعثر خارج محفظته ويحمل في طيات كلماته إجابة أسئلة والده كلها.

صوت هتاف «راشِد» على الهاتف أخرج «مُدثِّر» من مصيبته؛ فهبّ واقفًا وهو يضع محفظته بجيبه ويضع على كتفه قميصًا آخر غير الذي كان يرتديه ثم يقفز خارجًا وصوت البواب ينادي عليه قلقًا وصوت «راشِد» ينادي باسمه فزعًا، أمّا هو..

فقد نسي جرحه وألمه ومصائبه كلها وهو يطوي الأرض من تحت قدمه طيّا وأنفاسه تتسارع وجرحه يزداد اتساعًا.. أمّا قلبه فتُدق به مسامير الندم والتأنيب.

وصل إلى أعتاب الدار، اقتحمها غير آبه لقوانين الإنسان،

أرقل إلى الغرف، تتداخل كلّها أمام عينه وتتشابه، وكأنه يبحث عن غرفتها للمرةِ الأولى، تنفس بقوة وهو يرى بابها أخيرًا أمامه، فتحه بيديه أم بقدميه أم برأسه.. تداخلت عليه الحواس كلها، ولّما فُتِح الباب رآها وقد جلست بمنتصف ضوء الغرفة مغمضة العينين، يسيح شعرها على وجهها وتنحني رقبتها إلى جهة اليمين في هدوء وسكينة، أسرع إليها وهو يتلقفها بين يديه ويضمّها إلى جناحيه يحاول إخفاءها عن الأركان والأشخاص، ارتفع منه هتافًا مُنكسِرًا ينادي.. «يـــا الـــلّـــه»

وصوته يتقطّع زفرات.. وينبض قلبه بالحسرات..وتسلّ من عينه القطرات.

دخلت مسئولة الدار فزعة وقد علِمت بأمر اقتحامه، فلمّا رأته على حاله والدم يتقطر منه و «وردة» ساكنة بين يديه؛ اقتربت منه، ربتت على يده وهي تهمس له:

- دعها مكانها يا بني.. دعها ولا تقلق من شيء.

لم تجد منه ردًّا؛ اقتربت من جرحه؛ فلمّا رأت اتساعه شهقت متسائلة:

- من فعل بك هذا يا بني؟

لم يُجِب وعينه مُثبّتة على وجه «وردة»؛ فأعادت المسؤولة سؤالها مرة ثانية وهي تنظر إلى وجهه باستفهامٍ أكبر من قبل، وجاء ردّ

«مُدثِّر» بعد دقيقة مُفاجئًا لها وهو يجيبها وقد امتلأت أحرفه غضبًا وقهرًا وعيناه مازالت مرتكزة على وجه «وردة» هامسًا:

- فعلَهُ زوجها.

***

رفعت رأسها إلى السماء وهي تسأل الله.. «لِمَ أنا؟!»

انحَنتْ حتى لَامَسَت بِجبهَتِها الأرْض؛ فكَأنَّما تَغُوص فِيهَا! يضخّ القلبُ دماء اللهفة لإجابة في جسدِها كلّه، شَهِقَت والحُروفُ تَخرُج مِنها مُتَفرّقَاتٍ مُتَزَلزِلَاتٍ...

«انطَفَأتُ يَا الله..

فنَاداها مَنْ فَوقَها «اللهُ نُورُ السّمَواتِ وَالأرْضِ»

كان هذا صوت القارئ بمحطةِ القرآن الكريم وقد تضافر الاستنكار مع الاجابة، فتحسبُ أن هناك مصاحبة بين الهمّ والفرج في آن! والألم والأمل في آن! والعسر واليسر في آن!

مرّت دقائق أُلجِمت فيها من إحساسها بالحرجِ من نفسها وهي تعلم في قلبها لومًا وعِتابًا، أنزلت رأسها على استحياءٍ وهمست.. «أستغفر الله.. أستغفر الله»

قامت إلى دولابها وغيرت ملابسها، عادت إلى سريرها وتلقفت هاتفها وهي تقلّب فيه حتى وصلت إلى مبتغاها؛ ففتحتها وهي تنهل من نبع كلماتها وطيب معانيها الكثير، و لم تتوقف عن التصفح

والتأثر، ثم الابتسام تارة والبكاء تارة.. حتى استوقفتها جملة قد نزلت بمنشور باسم الأدمن...

«اعلم أن الهمّ مصيره إلى فناء ولن يبقى إلا الأمل؛ فاستمسك بهِ أينما حلّ»

مع تحيات صفحة #ميلاد

#الأدمن

فردت عليها.. وكانت أول تعليق.

بعد ساعةٍ...

عاد «مُصطفى» إلى بيتهِ فتلقفته ستة أعين، رحّب بـ «أم الخير» وهو ينقل بصره بين بناته الاثنتين، الكُبرى تجلس مبتسمة وكأنها لم يصِبها شيء! والصغرى تجلس مُتأهِبة وكأنها تعلم كل شيء!

لم يطل صمته وهو يقول:

- لقد قابلني «عليّ» مرة ثانية من أجلِك يا «عاليا».

نظرن جميعا إلى بعضهن، فأكمل «مُصطفى» :

- وعندما أخبرته أنكِ سترفضين كالمرةِ الأولى؛ أخبرني أنه يشعر أن ردك هذه المرة سيكون مختلفًا.

نظرت «أم الخير» إلى «عاليا» باستفهام وقد تهلل وجهها، فهي تعلم محبّة «عليّ» لـ «عاليا»، قالت الأخيرة بهدوء مُستنكَر:

- كيف نتحدث في أمر كهذا ونحن على ما نحن من الأحزان؟!

جاء رد «وِصال» أشدّ هدوءًا وقوة وهي تُجيب:

- وماذا فعلت الأفراح لتؤخذ بذنب الأحزان يا عاليا؟!

ظهرت ابتسامة الأب وهو يسأل «عاليا»:

- إذًا ماذا ترين؟

فأجابته ببعضِ حرج:

- ماتراه أنت.

صدحت زغرودة مفاجئة للجميع من بين شفتي «وِصال» مما دفع ثلاثتهم ليصمتوا وقد امتلأت صدورهم بالكثير من الاستغراب والاستنكار معًا، لكن يبدو أن مشاعرهم تلك وتعبيرات وجوههم لم تلفت انتباه «وِصال» أبدًا؛ فاستمرت ببذل الزغرودة وراء الزغرودة حتى نفد صوتها، تنقّلت عين «أم الخير» بين الجميع ورأت سعادة «مُصطفى» وابنتيه؛ فغلبتها العبرات وقد بدأت يدها تنتفض ثُمَّ صدرها ثُمَّ جسدها كلّه مما دفع الجميع أن يرقلوا إليها مهدئين لها وقد علا في نفس «مُصطفى» دبيب الوجل منها!

***

هبتّ رياح القهر على صدر «مُدثِّر» ففزع فزعة الغارقين وضجّ صدره ضجيج الملهوفين وعيناه تتقلب ذات اليسار واليمين؛ فأقبلت عليه مسئولة الدار تطمئنه وتهدئ منه حتى لان جانبه وسكن خافقه، استهلّت حديثها بكلماتٍ عن «وردة» وتمام حالها واعتياد سكونها؛

فلفّ رأسه إلى حيث مرقدها فرآها وقد جاورته بسريرها؛ فتغيّر من حال فؤاده الكثير.

استغرق بعض الوقت وهو يستمع إليها غير منصت ولا مهتم.. فقط تقرع على رأسه أفكار من لهبٍ وذكريات من نارٍ تصبّ على قلبه صبًا؛ مدّ يده بعفويةٍ موضع جرحه فازداد طنين رأسه وقد تثاقلت على نفسه فعلة والده، سقطت عبرة من عينه..

ليست حزنًا على ما مضى.. بل ندمًا على الأحزانِ.

بعدما أنهت مسئولة الدار حديثها قام من سريره ووقف بجوارِ النافذة؛ فتبيّن من ظلام السّماء أنه قد غفل يومًا كاملًا.. انتفض في وقفته وعقله يحدّثه.. «لقد تأخرت».

فتح دولابًا في ركن الغرفة وبدأ بإخراجِ محتوياته كلها وحشرها بحقيبة لا تحتمل نصف ما يضعه بها، باستنكارٍ هتفت مسئولة الدار تسأله:

- ماذا تفعل؟ توقف يا بني.

لكن «مُدثِّر» لم يلتفت لسؤالها أو يهتم للإيضاح، فقط يتحرك باضطراب وقلق قد ظهرا بوضوحٍ من يدهِ المرتعشة التي من المؤكد قد غشاها الألم بسبب جرحه، ولازال كذلك لا يهتم!

نظر إلى «وَردة» بخوفٍ وهو يلملم من أشيائها ما استطاع التحصّل عليه، أعادت المسؤولة نداءها لها وسؤالها المستنكر، فالتفت تجاهها بعينٍ خجلةٍ ونظرات حرِجة وقال:

- مضطر لأخذ وردة بعيدًا عن هنا.

صمتت المسؤولة وهي تنظر إليه باستفهامٍ وقد ملأها الاستغراب.. فهذه أول مرة يحدثها بأكثر من كلماتٍ ثلاث!

بداخلها نشأ يقين أن «مُدثِّر» لن يأخذها إلا إن كان بحق مضطر إلى ذلك، احترمت قراره وحرجه منها؛ لذلك لم تزد في أسئلتها، اقتربت من «وَردة».. مسّدت شعرها، تحسست وجهها بحنوٍ ثم أمسكت يدها وربتت عليها بضع مرات وهي تهمس.. «أتمنى لكِ الخير يا وردة.. كل الخير».

ثوان ثم التفتت تجاه «مُدثِّر» قائلة:

- أحتاج منك التوقيع على بعض الأوراق.

همّ بالاعتراض لكنها أوقفته بحركة من يدها وهي تقول بحزم:

- لستَ الوصيّ الوحيد عليها يا بني لذا يلزم منك التوقيع على بعض الأوراق التي تفيد أنك أخرجتها على مسئوليتك الخاصة.

تململ «مُدثِّر» كثيرًا في وقفته لكن النظرات الصارمة للمسئولة أمامه؛ دفعته للانصياع لأمرها.

خرج وراءها وعيونه تفارق موضع سيره إلى حيث رقدت «وَردة» ساكنة مستسلمة لا تدري شيئًا عن ما يدور حولها ولا ما آل إليه أمرها.

لم يقضِ وقته بمكتب الاستقبال كما توقع.. بل بالمكتب الخاص بالمسؤولة، انقضى من الوقت ربع ساعة وهي تلقي على أذنه تعليمات

خاصة بكيفية الاعتناء بـــ»وَردة»، أوصته كذلك عليها كثيرًا ثم جعلته يوقّع على أن المكان الجديد لمكوث «وَردة» سيكون منزله هو؛ فوقّع «مُدثِّر» مستسلمًا بعد وعدها بعدم إخبار أحد بمكان نزولها إلا أبويها بالطبع وهو ما وافق عليه بشق الأنفس.

وقبل أن يتركها ويغادر، استوقفته مرة أخيرة وهي تخرج بطاقة أنيقة وتقدمها إليه قائلة:

- ليس وقته.. أعلم هذا، لكن والدي «وردة» قدما فيكَ محضرًا أنّك غير مؤهل للتعامل مع مرضى بحالة ابنتهم بسبب...

سكتت قليلًا وقد علا وجهها الخجل؛ فأشار «مُدثّر» إليها أن تُكمل؛ فتنحنحت وهي تُضيف:

- كتبا بالمحضرِ أنّك مريض نفسيًا منذ وفاة والدتك وهو ما تسبب في إعاقات لك مثل مشكلة نطقك...و...

هنا سكتت وهي تتنفس بقوة مُنهية توترها بقولها:

- هذه البطاقة لطبيبة نفسية مُخصصة لحالات مثل هذه، يجب عليك الذهاب إليها والحديث معها وهي بدورها ستقدم تقريرها إلى المسؤولين.

ظهر على وجهه الانكسار لكنّه أخفاه تحت قسوة الزمن وهو يشكرها على موقفها معه، فأضافت:

- بُنيّ.. لا تتهاون في أمر الطبيبة أبدًا لأنّهم قد يمنعونكَ نهائيًا من الاعتناء بـ «وردة».

انتهى وقته بالمكتبِ؛ فخرج منه مُتجهًا إلى غرفة «وَردة» وقد غلفه القلق، إحساس بدأ من يده وانتشر إلى باقي جسده؛ فصار سيره هرولة.. وهرولته عدوًا، بأنفاس لاهثة وقلب يكاد ينخلع وصل إلى بابها..

هنالك رآه بالداخل يقف إلى جوار رأسها..

وجهه مُتعرّق، وشفتاه تهمس بكلماتٍ غير مسموعات، أمّا يده فترتعش وهي تتحرّك من جانبه مُتجهة إلى حيث وجهها..

استجمع «مُدثِّر» من نفسهِ وقلبه الكثير وهو يهتف به..

«توقّف.. إياكَ أن تُكمِل».

تسمّرت يده في الهواء والتفت وجهه إلى مصدر الصوت وقد حملت عيناه الكثير من العبرات المتحجرات، اقترب «مُدثِّر» بخطواتٍ واثقات حتى استقر مكانه بجانب سرير «وَردة»؛ فجعل من جسده حائطًا عازلًا بينها وبين زائرها، وما إن أتمّ وقفته هذه بنظرة صارمة منه حتى ابتعد الأول بضع خطوات إلى الخلف وهو يعطي ظهره إلى «وَردة» وصدره يعلو ويهبط.

هنالك اقترب منه «مُدثِّر» وهو يسأل بحنوِ:

- لماذا جئتَ؟

التفت له الزائر وقد أطلق سراح عبراته وهو يجيب:

- خِفتُ عليك.. يوم كامل لا أعلم عنك شيئًا، فقط أنك

أصبت.. خِفتُ أن أفقدك يا أخي.. بل ارتعبت من الفكرة.

أنهى كلمته وهو يجذب «مُدثِّر» إلى أحضانهِ فيضمّه الضمّة ويشمّه الشمّة ولازالت دمعاته تأخذ طريقها منسدلة على وجهه وصدره.

نظر «مُدثِّر» حيث رقدت «وَردة» ثم نظر إلى أخيه الذي ما زال يعطيها ظهره وكأنه يحرم على عينيه رؤيتها؛ شعر بقهرٍ يتملّك من جسده كله وهو يرى صدر أخيه ينتفض من قوة خفقات قلبه، أحسّ بقلّة الحيلة وهو يجذب «رَاشِد» من يده ليبتعد به عن سرّ خفقاته ويضمّه إلى صدره خارج الغرفة هامسًا بأذنه..

«هي بخير.. هي بخير».

زادت انتفاضة «رَاشِد» بين يدي أخيه، فعاجله «مُدثِّر» بقوله:

- ستعود الآن.

نظر له «رَاشِد» باستنكار وهو يهتف:

- لن أفعل.. لن أترككما وحدكما مرة ثانية.

- بل ستفعل.

- مدثر توقف عن الهذيان.. لن أغادر من هنا حتى يتم الإمساك بأبي.

مع ذكر والده أحس «مُدثِّر» بغصّة تقف في حلقه.. يشعر بمرارتها وسطوتها، حاول نفض شعوره جانبًا وهو يكمل حديثه مع «رَاشِد» لكن خرج صوته متخلخلًا مضطربًا وهو يقول:

- أفِق يا أخي.. ألا تذكر لمَ سافرت؟

حرّك «رَاشِـد» كتفيه دليلًا على عدم انتباهه للسؤال وعينه تتفلّت منه دون سيطرة إلى موضع غرفة «وَردة»؛ فأمسك «مُدثِّر» بكتفيه وحرّكهما بقوةٍ تجاه غرفتها وهو يعيد سؤاله ثم يهتف حانقًا:

- لأجلها.. سافرتَ لأجلها، لتستطيع العمل ودفع مصاريف علاجها.

لم ينتبه «رَاشِد» لجملة أخيه وعينه تتسابق لموضعها؛ فتتلكأ على صفحة وجهها حتى يحفظ بقلبه كل قطعة منها، أكمل «مُدثِّر» بصوت أكثر غضبًا وهو يكبّل يده:

- سافرتَ لأنك لن تستطيع التوقف عن حبّها واحتضانها والبكاء بين يديها وتقبيل قدميها.

حاول «رَاشِد» أن يفلِت من قبضة أخيه صارخًا.. «دعني»، ثم صدم أخوه صدمة بكتفه مكان جرحه فارتخت قبضة «مُدثِّر» عليه؛ فأسرع الأول بخطى متعرّجات متسابقات كأنما يصبو إلى ماء الخلد حيث موضعها.. حيث «وَردة»، هي الحياة.. كلّ الحياة، ثم جذبها إلى أحضانهِ يضمّها إلى جناحيهِ ضمّة ذاب فيها ألمًا وقهرًا وذلًّا..

وشفتاه تصرخان.. «آاااااه».

أمّا «مُدثِّر» فقد سقط أرضًا وقد تجمّع عليه ألمان.. ألم كتفه وألم أخيه، همس بصوتٍ حاول أن يصل لأذنِ «راشِد» لكن لم يسمعه غيره:

- سافرتَ لأنكَ تعلم.. أنكَ إن بقيتَ بجانبها فلن يمنعك عنها أحد.. حتى أنا، وهي عليكَ حرام للأبد.

***

اقترب «عليّ» بهدوء تجاه باب «أم الخير» وقد علت وجهه ابتسامة لم يستطع إخفاءها منذ وقت، لكنّها تبددت تمامًا وهو يجد «أبا الخير» وقد جلس أمام الباب، يُلمع حذاءً أسود اللون، يرتدي نظارته السوداء التي لا تفارق وجهه، والجميع يعلم أنّه يرتديها لأنه لا يحتمل الضوء من سهره طوال الليل وشربه للمحرّمات!

النظارة تُخفي نصف وجهه وعلى الرغم من هذا يظهر الجرح القبيح المنظر الساكن جانب وجهه جليًا في ضوء السيارات العابرة، رجل غير ودود أبدًا، هكذا سيرته دائمًا بين الناس، كذلك حكايات «أم الخير» عنه كفيلة لتجعل الجميع يتجنبون الاصطدام به والاحتكاك معه، أما هو.. فيريد أن ينقل إليها خبره السعيد؛ إذًا لا مفر من الحديث معه ليُنادي عليها.

أقبل إليه، وقف أمامه، مدّ يده يسلّم عليه لكن «أبو الخير» لم يهتم أبدًا له، تملّك من «عليّ» الحَرج وهو يُعيد يده ثانية إلى جانبه ويتنحنح في خجلٍ قائلًا:

- هل يُمكنك النداء على «أم الخير» لأسألها أمرًا؟

رفع «أبو الخير» رأسه قليلًا حيث «عليّ» ثُمّ أعادها ثانية للأسفل دونما اكتراث وهو يُكمل تلميع الحذاء بين يديه، ظلّ «علي» في مكانه لا يدري هل يُنادي هو بنفسه على «أم الخير» أم ينتظر حتى يسمح له زوجها؟

مرّت خمس دقائق حتى أجمع أمره؛ فاقترب من باب بيتها ليطرقه لكن «أبو الخير» في حركةٍ غاضبةٍ مدّ قدمه في طريق «عليّ» مما منع الأخير من التقدم أكثر، وكان هذا كافيًا ليفهم أنّه غير مرحب به أبدًا؛ فقفل عائدًا في طريقهِ وهو يدعو لـ «أم الخير» أن يصبرها الله على زوجها.

***

يتفلّت منها الكثير من الوقت وهي لا تدري عن ما حولها أيّ شيء.. فقط تقلّب في شاشة هاتفها؛ فيظهر المنشور وراء المنشور، بعض الكلمات تنثر في صدرها القليل من الذكريات والبعض الآخر يجذبها إلى طيات نصحه جذبًا متفرّدًا غير مُقاومٍ من جهتها، ملكَت عليها تلك الصفحة قلبها فصارت جزءًا لا يتجزئ من نهارها وفي بعض الأحيان تسرق معها ساعات ليلها إلا القليل منها، طلعت شمس الحياة في نفس «وِصال»؛ فانكمش الحزن كسيرًا ذليلًا إلى ركن من أركان قلبها يختبئ به بعدما خلعتْ أردية حدادها وأنينها واستبدلتهما بعناقٍ طويل لأفراح الدنيا ومسرّاتها، فقد أيقنت من كثرة قراءاتها أنَّ.. «الحزن يقتل الروح ويفني النفس»

ظلّت على حالها طويلًا طويلًا ثمّ وقبل أن تخرج فتحت منشورًا على « ميلاد روح» وكتبت..

«ربّتني أُمّي على قصص ما قبل النوم، صنعتُ منها حياة، كما تحكي لي سأعيش، سأكبر، سأتغير، لم تؤثر بي أيّ من القصص كما أثرّت بي قصة «دليلة وشمشون» ذلك الرجل القوي النقي المُحب، وتلك المرأة الأصيلة الرقيقة المُحبة، وكيف أن حياتهم كانت ممتلئة بالورود والحب والأمل، عاشا معًا وماتا بعد عمر طويل، هكذا كانت تحكي لي أُمي.. وهكذا قررتُ أن قصتي ستكون، لكن ليست كل الأحلام تُحقق، حتى فترة قريبة جدًا كانت حياتي مُعتمة.. أمّا الآن فقد أنارت..

من قال أنَّ الضياء يبدأ في الصباح؟!

بل الضياء الحقيقي يبدأ من القلب؛

أشكركم على إضاءةِ قلبي»

أغلقت هاتفها وهي تتنهد تنهيدة طويلة حملت من داخل صدرها ما حملت ثم قامت من مكانها تبحث عن أختها، فقد قالت الأخيرة أنها تعد لهم مفاجأة.

دخلت غرفة «عاليا» وهي تراها تتحدث في هاتفها، فلمّا لمحتها أختها؛ استأذنت من محدثها وأغلقت الهاتف، ابتسمت لها ثم قامت وهي تجذبها من يدها إلى خارج الغرفة ونادت بأعلى صوتها على والدها.. فلمّا حضر؛ هتفت.. «اليوم ستكون خطبتي»

نقل «مُصطفى» عينه بين ابنتيه في فزعٍ..

«وِصال» أجلمتها المفاجأة أمّا «عاليا» فقد لوت شفتيها باستنكارٍ من رد فعل والدها، هتفت:

- وكأنك لا تعلم بقدوم عليّ!

- أعلم.. لكنه قادم اليوم ليتحدّث معي ويُفهمني ظروفه وكيف ستكون معيشته.. فقط.

- وما المشكلة إذًا إن أضاف إلى حديثه تقديم دبلة الخطوبة؟! بالإضافة إلى أني أعلم عنه بالفعلِ كل شيء ولن أعترض على شيء كذلك.. فأيًا كانت ظروفه فأنا أوافق عليه.

انعقد حاجبا والدها وهو يهتف بغضبٍ:

- كيف تكون خطوبة دون أن يتقدم لك أولًا في بيتكِ بصورة رسمية كباقي الفتيات!

عقدت ساعديها وهي تُجيب:

- لا تهمني تلك الشكليات.

انقلبت نظرة الغضب بعينه إلى قلق وهو يتذكّر كلماتها من قبل أنها لن تتزوج أبدًا.. هتف بها بعد دقيقة:

- ما الذي غيّرك يا عاليا؟

- لا شيء.. فقط أعلم أنه الشخص المناسب.

كل هذا و«وِصال» صامتة لا تُجِيب، حاولت الاعتراض كذلك

وطرح مخاوفها من قرار أختها المتسرّع لكن نداءً خفيًا داخلها غيّر من رأيها؛ فأسرعت إلى أختها وهي تضمّها إلى صدرها وتهتف..

«مبارك يا عاليا.. ألف مبارك»

نظر «مُصطفى» إلى ابنته الكبرى باستنكارٍ؛ فأجابت نظرته بقولها:

- القرار قرارها وهي سعيدة.. كن كذلك لأجلها.

همس متسائلًا:

- وأنتِ.. ماذا عن أحـ....

لكن «وِصال» قاطعته هي تجذب أختها بعيدًا وقد فهمت ما أراد والدها قوله، هتفت بحماسٍ:

- هيا يا عاليا لتجهزي.. فقد اقترب الوقت.

اتجهت الفتاتان إلى غرفتيهما وبقى «مُصطفى» وحده تأكله نار الحيرة وتدق في صدره نواقيس الخطر.

***

عند قدميها كان مجلسه بعدما نزفت مآقيه على رأسها حتى نضب ماؤها.. أطلال روح تجاور أطلال جسد!

وغيمة من ندمٍ تلفّ سماء الغرفة فتُذهب البقيّة الباقية من لهفةٍ كانت بقلبهِ تستعِر ثم تحيلها نارًا.

هبّ «راشِد» على إثر ذلك اللهيب؛ دبّ الأرض من تحته دبيبًا غاضبًا حانِقاً تجمعت بعينيه عبَرات القهر وهو يعضّ على يديه ويهتف.. «يا ليتني.. يا ليتني».

أمسكه «مُدثِّر» بقوة وهو ينادي باسمه لعلّ الأول يفيق، رفع «راشِـد» رأسه إليه تتخطّف نظراته آيات الخجل وترتخي يداه بأمارات الهوان، ضمّه الأول إليه ضمّة وهو يهمس له بأسى:

- ابتعد يا راشد وسأساعدك على الفراق..
- ماذا ستفعل؟
- سأبيع البيت وآخذ وردة إلى مكان جديد...

صمت قليلًا ثم أضاف:

- ولن أخبرك بمكانها الجديد.

لم يستطع «راشِد» الاعتراض.. فقط ترتسم بعينيه نداءات التضرع والاستجداء، فلمّا رأى «مُدثِّر» منه ضعفًا ووهنًا؛ هتف بغضب:

- لِمَ لا تفهم..

ما دُمتَ ستظلّ تراها وردة مخطوبتك؛ إذًا ارحل

ما دُمتَ ستنسى حرمتها عليك؛ إذًا ارحل

ما دُمتَ ستبقى مقيّدًا بتلك اللهفة التي تتملّك جوارحك عندما تراها؛ إذًا ارحل

ارحل يا راشِد.. ولا تعد أبدًا.

قبض «راشِـد» على رقبة «مُدثِّر» قبضة قد أعياها الغضب واليأس معًا وهو يصرخ:

- تطلب المستحيل بدمٍ بارد.. لن تشعر بناري أبدًا.

حاول «مُدثِّر» إزاحة قبضة أخيه لكنه لم يستطع؛ فقال وأنفاسه تختنق:

- أخشى عليك يا أخي.. فحرمتها عليك أبدية.

فلمّا رأى «راشِد» احمرار وجه أخيه وتقطّع أنفاسه؛ انتبه لما يفعل ثم ارتخت قبضته عن عنقه، سقطت يداه وتهدّلت كتفاه، سار بخطواتٍ متثاقلاتٍ إلى حيث مرقدها، مدّ يده بحذرٍ تجاهها وهو يهمس بشفاهٍ مرتعشة:

- أحببتها من صغري يا أخي وعشقتها بِكبري

لم تكن وردة بقلبي أبدًا بل كانت هي قلبي

أراها فأحيا ثم تذهب عني فتتوقف الحياة كلها من حولي.

أنهى كلمته وقد استقرّت يده على يد وردة الساكنة أمامه؛ فأضاف بقهرٍ:

- والآن هي زوجة أبي..

فما أحقره من أب!

وما أتعسني من ابنٍ له!

سكت دقيقة أو يزيد ثم قام من مكانه وعدّل ملابسه التي فسد نظامها، تنفّس بقوة ثم وقف أمام «مُدثِّر» وقال بحزم:

- سأرحل يا أخي.. سأرحل ولن أعود أبدًا إلا إذا طلبتَ مني ذلك...

همّ «مُدثِّر» بالتعليق لكن «راشِد» أوقفه بحركة من يده وهو يُكمل:

- وأنا على يقين من أنّك لن تفعل.

ضمّ «مُدثِّر» إليه ضمّة شديدة ثم اتجه إلى باب الغرفة مُغادرًا دون أن يلتفت إلى «وَردة» ناداه «مُدثِّر» بصوتٍ باكٍ:

- سلام يا أخي.

فأجاب «راشِد» بصوتٍ حاول أن يكون واثقًا لكنه ورغمًا عنه خرج مُتخلخلًا مُرتعشًا وهو يشير إلى أخيه أولًا ثم إلى «وَردة» بوهنٍ هامسًا:

- بل عليكَ وعلى قلبي السلام.

وقف «مُدثِّر» مكانه لحظات يحاول أن يلملم بعضًا من خفقات قلبه التي تدبّ بداخله دبيبًا حانقًا سار حتى «وَردة» فرآها ولأولِ مرة منذ غفلتها.. يترقرق من عينيها الدمع!

أحضر منديلًا وجفف عبراتها ثم مسح على شعرها وهو يهمس بقهرٍ:

- أينما أنتَ.. لا سامحك الله يا أبي.

***

صوت طرق شديد على بابها لم يجعلها تترك ما بيدها أبدًا، يهمها كثيرًا أن تطمئن متابعاتها أن الخطّة تسير كما رسمَت لها، أنهت سريعًا منشورها على صفحة (اتضحك علينا) ثم أرقلت إلى الباب وفتحته بهدوءٍ وهي تبتسم بقوة قائلة:

- ألا يحق للعروس أن تختلي بنفسها!

جذبتها «وِصال» من يدها وهي تجيب هامسة:

- يحق لها بعض الوقت وليس كل الوقت.

حمَلَت «عاليا» أكواب العصير ثم تبعت أختها حيث مجلس «عليّ» ووالديه، ظنّت أنها تملك زمام كل شيء لكن كان أول ما تفلّت منها هو احمرار وجهها الذي أحست بحرارته، همّت أن تسأل.. «هل الجو حار»

لكن والدة «عليّ» قطعت أفكارها وهي تعلّق على رؤيتها عروس ابنها:

- ما شاء الله.. زين ما اخترت يا عليّ.

زاد احمرار وجه «عاليا» خاصة حينما لمحت نظرة غريبة قد تكونت على وجه «عليّ»، أشاحت برأسها وهي تسمع والدها يقول:

- شرفتمونا بزيارتكم.

قال والد «عليّ»:

- بل الشرف من نصيبنا.

لفّت وجهها تجاه «عليّ» فرأته لا يستطيع إزاحة عينه عنها وقد تبدّلت نظرته الغريبة لنظرة أغرب منها؛ لم تستطع «عاليا» الجلوس أكثر من هذا خاصة مع شعورها بازديادِ حرارة وجهها كلّما وقعت عيناها على «عليّ»؛ فهبّت من مكانها تهمس مستأذنة بصوتٍ حسِبَته مُدويًّا لكن الحقيقة أنه لم يسمعه أحد، غادرت المكان بسرعة خشية أن تتعثر خطواتها، تبعتها «وِصال» وهي تكتم ضحكاتها وتهمهم

بكلمات شامتات، مرّت دقائق ثُمّ أقبل الأب على ابنتيه، وجّه حديثه إلى «عاليا» وهو يطلب منها أن تبادل والدة «عليّ» الحديث، عاد إلى المجلس تتبعه الفتاتان، جلسوا جميعًا..

أخرج «عليّ» من جيبه علبة زرقاء ذات جوانب فضية ثم قدمها إلى والده الذي قدّمها بدوره إلى «مُصطفى»، قام الأخير من مكانه ثم أمسك بيد ابنته وأجلسها مكانه حيث كان هو أقربهم موضعًا إلى «عليّ»، أحسّت «عاليا» بقدمها لا تحملها وهي تسير مع والدها حيث سيجلسها، لكن والدة «عليّ» فاجأتهم بقيامها من مكانها وتبديل مجلسها مع ابنها ثم جذبت العلبة من يد «مُصطفى» بهدوءٍ وهي تبتسم بصدق وتهتف:

- أنا من سألبسكِ يا زوجة ابني.

ظهر على وجه «عاليا» عظيم الامتعاض وهي تنظر إلى والدها المُستغرب و«عليّ» الذي يكاد يشتعل من السعادة، تجمّعت برأسها الأفكار لكن ما لبثت أن خرجت منها سريعًا على صوت زغرودة حماتها المستقبلية ثم زغرودة «وِصال».

نظرت «عاليا» إلى الإطار الذهبي الذي استقر بإصبعها، خفق قلبها خفقة موجعة لا تدري هي خفقة فرح لنجاح خطتها حتى الآن أم شيء آخر؟

انقضت الخطوبة ومرّت ساعة بعدها و«عاليا» تتصل ب«عليّ»

كل خمس دقائق حتى أجابها أخيرًا بصوتٍ يمتلئ فرحًا قائلًا:

- كيف حالك؟

لم تُجِب سؤاله وهي تُعاجله بسؤالها:

- ما معنى أن تلبسني والدتك دبلتي بدلًا عنك؟ هل بدأتْ من الآن الغيرة عليك!

سكتَ «عليّ» دقيقة ثم قال وقد تماسك صوته:

- أنا من طلب منها ذلك.

لم تتوقع إجابته تلك فصمتت تستجمع أفكارها لكن «عليّ» أكمل:

- أخشى عليك مني.. أخاف أن أفقدك بسببي.

من جديد فاجأتها إجابته؛ فقالت مستنكرة:

- تخشى علي فتبتعد عنّي.. هذا ما تقصد؟

- يا «عاليا» أنتِ حلمي الذي ظللتُ كثيرًا أدعو الله به.. لهذا أخاف أن أفقدك لأني أغضبتُ الله فيك.

ازداد استنكار «عاليا» أكثر فأكثر وهي تهتف:

- وهل لو ألبستني الدبلة ستغضب الله؟!

- لو لمستُ يدك سأغضب الله.. أعلم أني سبق ومسكتُ يدك لكني وقتها ذهبتُ وسألت إمام المسجد؛ فأخبرني أن معصية الله تذهب نعمَه، وأنت أكبر وأهم نعمة بحياتي يا «عاليا».. لا أستطيع أن أفقدك، أرجوك افهميني.

مرّ بعض الوقت حتى أنهت «عاليا» حديثها الهاتفي مع «عليّ»، خرجت إلى والدها وأختها وقد ازداد ضياء وجهها هاتفة:

- عندي مفاجأة جديدة.

تركت «وِصال» هاتفها الذي تتابع منه المنشورات، واعتدل «مُصطفى» منصتًا لابنته التي قالت بسعادة بالغة:

- اتفقتُ مع «عليّ» أن كتب الكتاب سيكون بعد أسبوعين.

***

خرج «راشِد» من غرفتها وما خرجت «وردة» من غُرف روحه أبدًا، سارَ ببعض حياة وبقيته تتساقط من خلفه سقوط الثمر من الشجر، وإن رحلت عنه كلها.. فقد حُقّ لها..

أحبها وما كان يعرف الحُبَّ قبلها، كانت هي الشمس بإشراقها وجمالها، كان لها في نفسه حضور الغريب للوطن، قلبه له ونبضه لها، لم يدرِ قبلًا معنى السعادة إلّا في الرغيف والكِساء وعند مرضه يجد سعادته في دواء، أما وقد عرفها؛ فأيقن أنّ لا سعادة تفوق سعادة المُحبِّ ولا قُرب يعلو قُرب الحبيب، ولا نجاة إلّا مع المَحبوب!

ما أحبّ غير نفسها، وما أحبّت منه غير نفسه، فكان يراها ويسألها.. «كيف حالكِ؟»

فُتجيبه.. «حالي من حالكَ؛ فانظر في نفسك لتعرف»

كان فقيرًا، كان أجيرًا، كان عند الناسِ حقيرًا!، لكنه كان يرى صورته في عينها عظيمًا، فيسألها.. «تخدعيني في نفسي؟»

فتجيبه.. « وما أنا إلا نفسك.. فهل أخدع نفسي لأخدعك؟!»

هنالك أدرك أن لا حبّ يعلو حبها، ولا قُربَ يحتاجه غيرها، هي وفقط تكفيه!

كان يعلم أن الحياة قاسية؛ فتهيأ لها، امتلأ قسوة لها، وتحجّر قلبه ليستطيع الفكاكَ من أحزانها، لا يرفع ظلمًا، ولا يمسح ألمًا، ولا يدفع قهرًا، فقط يحيا في الدنيا لينتصر أو يُقتل دونها، لكنها أحيَت قلبه وكأنها نفخة الروح، فصار يتألم لبؤس كل بائس ويتوجع لمرارة كل فقد حتى ولو لم يكن له، أمّا قلبه فصار لها، فمن أحيا قلبًا مواتًا فهو له حق خالص!

تعاهدا.. لا فراق، كانت بهما حماقة الحبّ، فلا دوام لشيء ، لكن مع ذلك تعاهدا، أخبرها يومًا باكيًا.. «لا تبتعدي، لا تغربي، لا تمرضي، لا تحزني، لا تجزعي، لا تفزعي، لا تهلكي، لا تموتي»

فبَكت من عهوده وعلى الرغم من يقينها أن لا عهود باقية.. «أُعاهدكَ على حياة معك مهما طال الوقت»

ورحل هو ليقترب، هي غربة الحياة الفانية، سافر ليعود بعد شهر وقد جاءته القاضية!

تُزفّ لغيرِهِ!

تُزفّ إلى أبيهِ!

هذه الحياة قاسية!

أين الوعود الباقية؟!

أين الدموع الغالية؟!

أين قلبه منها هي؟!

وصل إلى بيته الذي كان به يحيا، دخله وما دخلت روحه معه، بقيت على الباب ترفض معاودة الذكرى، فتزلزلت قدمه واختلّ ثبوته وانتفضت جوارحه، كلٌّ يأبى أن يذوق الألم ثانية، فهناك.. هناك بذلك الركن رآها وقد سقطت سقطة الموت بفستان عرسها!

ذلك الفستان الذي كان منه لها، يا لها من ساعة مات فيها وماتت هي فيه وما بقيَ إلّا جسدان يحملان اسمين وبقايا قلب!

***

بعد أُسبوعين...

أمسكَت «وِصال» هاتفها وقد تهيأت لتخرج، وقبل أن تُغادر تمامًا عادت لغرفتها، فتحت الهاتف وعلى صفحتها الغالية «ميلاد روح» كتبَت..

«لم أظن يومًا أن بعض كلمات قد تغيّر فيَّ بهذه الطريقة، أعدتم الحياة إليَّ مرة ثانية، ربما لم أُخبركم بهذا من قبل..

أنا فقدتُ طفلي الذي كان لا يزال بداخلي من فترة قريبة،

أعترف أنّي منذ حملتُ به وأنا لم أكن أريده، لكن فقده كان أصعب شيء مررتُ به، ولولا وجودكم في حياتي لما تعافيتُ؛ لهذا أشكركم من كلّ قلبي، والآن ادعوا لي بالتوفيق لأنّي أُنهي اجراءات إلزامية مطلوبة منّي لعملي الجديد»

أغلقت الإنترنت بعدما انتهت من منشورها وتأكدت أنه نزل على الجروب، ثُمَّ قامت وغادرت المنزل، في طريقها أخرجت ورقة وقلمًا، سطرت بهم كلمات سريعة مُرتّبة، ظلّت تنظر إليهم طويلًا لتتأكد أنها لم تغفل شيئًا، غلبتها عبرة ساخنة لكنها مسحتها سريعًا وهي تضع الورقة بجيبها وتتنفّس بقوة علّها تلبس بعضًا من روح الثبات الذي ترتجيه، وصلت حيثُ وجهتها؛ فترجّلت من الحافلة وصعدت البِناية المقصودة.

❋❋❋

تحرّكت قدمه بتوترٍ كبير وهو ينتظر أن تُناديه موظفة الاستقبال منذ ما يزيد عن النصف ساعة، قام إليها أخيرًا وسألها متى يحين موعده لأنّه يجب عليه السفر قريبًا ليعود لجيشه، اعتذرت منه المرأة ثُمَّ تحرّكت من خلف مكتبها واتجهت لغرفةٍ أخرى مُجاورة، فتحت بابها وقالت بابتسامة:

- أرجو منكَ أن تنتظر هنا سيّد «مُدثِّر» لأن عُمّال التكييفات قادمون للعمل في مكان الاستقبال، كذلك الطبيبة ستكون معكَ بعد قليل.

تنحنح قليلًا وهو يسألها بخجل:

- لو أنّها فقط تكتب تقريرًا دون الحاجة....

لكن المرأة قاطعته بحركةٍ من يدها وهي تُضيف:

- بإمكانكَ أن تقول ما تشاء لها، ونصيحة منّي لا تضيع فرصة الحديث معها.. فهي حقًّا ماهرة في الطب النفسي كذلك تستطيع كشف كل الخدع.. فيُفضّل ألا تكذب عليها.

أنهت جملتها ثُمَّ غادرت الغرفة وهي تُغلِق الباب خلفها وعلى وجهها ذات الابتسامة السابقة، بقيَ هو في مكانه يُسيطِر عليه الملل ويأكل روحه رويدًا رويدًا حتى فُتِح الباب من جديد ودخلت هي، كانت مُرتبِكة قليلًا لكن تغلُب على وجهها أمارات القوة، جلَسَت أمامه في هدوء وأخرجت قلمها ودفترها، رفعت رأسها إليه مُبتَسِمة؛ فشعر بالخجل يتملّكه وهو يرد ابتسامتها بعجزٍ تام في الرد، مرّت دقائق وهي تنقل عينها بينه وبين الورقة التي تكتب بها، نظر إليها طويلًا ثُمَّ قال بصوتٍ أراد أن يبدو واثقًا:

- أنا لا أحتاج لطبيبة نفسية.. يجب أن تعلمي هذا.

نظرت إليه في تعجّبٍ وأجابته بصوتٍ أقرب للهمسِ:

- حسنًا...

لكنّه قاطعها محاولًا الاعتذار:

- لم أقصد أنـكِ لا تصلحين طبيبة... لكككككككـ.. أقصصصصصـ...

ماتت الأحرف على شفتيه بعدما اضطربت نفسه، ملأه الخجل، وسكنه الحياء، أحسّت هي منه كل هذا، فتكلّمت وكأنها لم تنتبه:

- لا تحتاج لطبيبة نفسية لأنّك لستَ مجنونًا.. أليس كذلك؟

ومن قال أن هناك عقلاء؟ كلّنا مجانين لكن بعضنا يستطيع إخفاء أعراض جنونه والبعض الآخر لا يستطيع.

فاجأته كلماتها، بل وأضحكته؛ فعاد إليه اتزانه الذي كان منه فرّ، عادت ثانية إلى كتابتها؛ فقلق هو مما تدونه عنه، يخشى أن تكتب شيئًا يُفقده أحقية الاعتناء بـ «وردة»، تذكَر نصيحة موظفة الاستقبال، فضبط أنفاسه جيدًا ثُمَّ قال:

- اسمي «مُدثِّر» وأنا حقًا لا أحتاج لطبيب نفسي لأنّ البلاغ الذي قُدِم فيَّ كان كيديًا، إنما الحقيقة أن والدي «وردة» لا يريدونني أن أتواجد لرعايتها، وأنا أرى أنَّ من حقي هذا.. أولًا هي زوجة أبي، ثانيًا أنا من يتكفّل بمصاريف رعايتها، أقصد أخي.. وأنا من يستلم الأموال ويقوم بالرعاية.

توقّف هنا عن الحديث بعدما أدرك أن الكلِمات كانت تنساب منه دون تلعثم أو زلزلة، غاص في فرحته دقيقة أو يزيد حتى قطعت هي عنه أفكاره وهي تسأله:

- لماذا تخبرني كلّ هذا؟!

- لا أدري، ربما لأنِّي أعلم أنني يجب أن أتحدّث بصدق لتنتهي

مُشكلتي وحينها سيُمكنني الرحيل دون خسائر أو تقارير سيئة.

لم تستطع منع نفسها أن تسأله:

- وهل تحدثتَ بصدقٍ؟

- لم أكذب في أي شيء قلتُه.

- ليس بالضرورة أن يكون كذبًا.. لكن إخفاء المشكلة الحقيقية يُعد في حد ذاته كذبًا، كذب على النفس على الأقل.

- وما الذي يجعلني أكذب على نفسي أو عليكِ؟

ما جِئتُ إلّا لأضع حدًا لكذبات من حولي، فهل أنضمّ إليهم وأكون كاذبًا أيضًا يا دكتورة؟!

هُنالك امتلأ وجهها خجلًا وهي تهمس في صوت وصل إلى أذنه على استحياء:

- الحقيقة أنا لستُ طبيبة، بل جئتُ لأنّ هذا موعدي، والموظفة أدخلتني هنا قائلة أنّ هذه هي غرفة الانتظار الحالية...

نظرت إليه علّها تجد منه تشجيعًا ورفعًا للحرج، لكنه لم يشعر إلّا بنفسه وقد احمر وجهه غضبًا؛ ففزعت من مكانها وهي تهمس برعب:

- أنتَ من تحدّث دون أن أطلب منكَ.. أنا...

لم تستطع أن تسيطر على فزعها أكثر؛ فأسرعت الخطى المتعرّجة تجاه الباب وقد أوقعت بعض حاجياتها خلفها، لكنّها لم تنتبه، أمّا هو فلم يخرج من حالة الغضب التي انتابته إلّا بعدما أُغلق الباب تمامًا

واختفت عن ناظريه تاركة خلفها دفترها وقلمها والورقة التي كانت تكتب بها، رفعهم عن الأرضِ وغادر المكان، اسمها فوق الدفتر «وِصال مُصطفى»، نقل عينه إلى الكلمات التي سطرتها، كانت تكتب أعراض الأرق التي تواجهه، تسمّرت عيناه فوق أحرفها، أحسّ بالجو يشتد حرارة، ارتعشت يده وتعرّق جبينه، ترجته موظفة الاستقبال أن ينتظر قليلًا بعد لكنّه لم يكن يهتم بأي شيء، كل الأمور تلاشت من حوله، اختفت آثارها، كلّ شئ لم يعد له أهمية إلّا أمر واحد.. هذه الفتاة، قبض بقوة على الورقة بين يديه وهو يتحسس تلك القلوب الصغيرة التي وضعتها مكان النقاط لتزيّن بها الأحرف!

***

- تُحبّها يا ولدي؟

هكذا سأله جاره في المحلّ المُجاور له والذي يعرفه من سنين؛ فأجاب «عليّ»:

- هي الهواء يا عمّ.. والله لهي أقرب إليّ من أنفاسي.

- إذًا اتقِ الله فيها يا ولدي.

تفاجأ «عليّ» من جملة الرجل؛ فأقبل عليه يستنكر تلك الكلمات منه معللًا:

- أخبركَ أنّي أحبّها يا عمّ فتقول لي اتق الله فيها.. فبالله كيف لا أفعل وهي ما أحيا لأجله؟!

ابتسم الرجل وهو يربتُ على كتفِ «عليّ» موضحًا:

- يا ولدي.. والله ما قصدتُ إلّا خيرًا.

انتبه «عليّ» لحدة قوله؛ فحاول تصحيح ما أفسد:

- وأنا والله يا عمّ ما عنيتُ إلّا خيرًا، أجدني أحيانًا أدافع عن حبّي لها وأُثبته كأنّني في حربٍ أخوضها، أودّ لو أصرخ بحبّها، أولم ترني يا عمّ؟ ألم ترَ دمعي حين حملته ذرات الهواء من حولي؟ ألم تسمع لعثمة لساني وتيه أحرفي؟ ألم تجد ذلك الخفقان في صدري وهو ينتفض أمام كلّ مارّ؟ كلّ ما في أمري منها وأمرها منّي.. أنّي أحببتها يا عمّ وأخشى والله فقدانها.

ابتسم الرجل ثُمَّ تحولت بسمته لضحكات متتاليات وهو يرى وجه «عليّ» وقد امتلأ خجلًا، قال بعد دقائق:

- اسمعني يا بُني.. من أحب؛ صان، فصُنها يا ولدي وعاملها كما تُحب أن تُعامَل ابنتك، وانظر لها نظرتكَ لزجاجة عطر ثمينة، كلّما مسحتَ عليها برفقٍ؛ نلتَ من عطرها وازدادت هي سعادة بقربك منها واحتياجكَ لها، ثُمَّ إنّك في نقاء صورتها سترى صورتك وكأنّها تخفيك داخلها، أنتَ النقيّ في روحها النقيّة.. حتى لَيُخيّل إلى من يراكما أنكما واحد؛ فلا يدري من منكما الأصل ومن مرآة الآخر.

- أنَّى لكَ هذا يا عمّ؟!

- من قلبي يا ولدي.. والله من القلب.

- زدني يا عمّ.

- إياكَ وكسرها يا «عليّ» ، فإنكَ إن كسرتها حطمتَ روحها؛ فانسكبَت نفسها منها، وإنها لتجهل أن روحها تسقط منها حتى تسقط كلها، فتعود أنتَ إليها في ساعة تبحث عن تلك الإنسانة التي عرفتَ وذلك القلب الذي أحببتَ فلا تجد إلّا روحًا محطّمة قد ملأتها الكسور حتى أفنتها!

- لم أكن أعلم أنّ قلبك يفقه هذه الأمور يا عمّ؟

- ولمَ لا يفعل يا ولدي؟ أليس من الدين؟ ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم «رفقًا بالقوارير»؟

ملأ الاستغراب وجه «عليّ» ؛ فضحك الرجل هاتفًا:

- هل ظننتَ أن الحبّ ليس من الدين؟! أم ظننتَ أنَّ مثلي لا يفقه الدين؟

- تريد الحق يا عمّ؟ أستغربكَ في الأمرين.

طمأنه الرجل قائلًا:

- أمّا الأولى يا «عليّ» فأنا أرى الحبّ أساس الدين، فلولا الحبّ ما أطعنا الله عزّ وجلّ، ولا أطعنا رسوله صلى الله عليه وسلم، ربما الخوف سبب أيضًا لكن الحبّ يحيا طوال الوقت، في وجودِ الخوف وفي غيابه، كذلك الحبّ في المعاملات.. لولاه ما ابتسمنا، ما تصافينا، ما تراحمنا، ما تقاربنا.. ما تزوجنا.

- إذًا الحبَّ أساس الدين والدنيا.

- وأكثر يا ولدي.. وأكثر، الحبّ هو الإنسانية الكامنة في صدورنا.

- فتح الله عليكَ يا عمّ.

- وعليكَ يا ولدي، أمّا الأمر الثاني، فيُحزنني ظنّكَ أن الدين يقتصر على شيوخ المساجد فقط، أتعلم أننا تربينا على الدينِ لكن كانوا يقولون لنا أنّه أخلاق وعادات، فكنّا نشبّ رجالًا، ونحن نجهل أن رجولتنا من الإسلام!

نظر «عليّ» بقلقٍ في ساعة يده؛ فقال الرجل مُتفهمًا:

- حان الوقت.. أليس كذلك؟ اذهب يا ولدي لتتجهز، أراكَ مساءً ببيت عروسك بإذن الله.

التفّ «عليّ» خلف الطاولة التي يجلس عليها الرجل ثمَّ انحنى على يده مقبّلًا ممتنًا هامسًا إليه:

- أنتَ رزق يا عمّ.. والله رزق.

***

وقفت «أم الخير» تسأل جارة لها على الطريق سؤالًا، فبادرتها المرأة بقولها:

- أتى أُناس من جديدٍ يسألون عنكم يا خالة، وأصرّوا أن يعرفوا مكان بيتكم.

وكان من كلام المرأة ما زاد في الأجواء اضطرابها وقلقها، فسألت الجارة بقلقٍ.. « فيمَ أخطأت؟»

ارتبكَت «أم الخير» وتعثّر لسانها، فسألت المرأة باستفهام:

- لماذا أنتِ خائفة يا خالة؟ هل تهربون من شئ؟

لم تنتبه لسؤالها وهي تتحرّك من أمامها مُبتعدة دون احتراس للطريق، مما جعلها تسقط أرضًا بعدما صدمتها دراجة.. كانت صدمة خفيفة لكنها أسقطتها أرضًا؛ فتبعثر حالها كلّه، فُكَّ الحجاب عن رأسها، وتمزّق جزء من جلبابها.

تجمّع الناس حولها، هذا يرفعها وهذا يدفعها، جسدها كلّه يؤلمها.. لكن ما أفزعها شيء غير أن حجابها قد كشف وجهها كلّه، فمدّت يدها المرتعشة بسرعة وشهيقها يبدو جليًا.. لملمت الحجاب ولفّت به وجهها وشدّت عليه، غطت جانبيه جيدًا، ثُمّ بدأت تنتبه لُصابها.. والذي كان جليًا أنّ خوفها من نزع حجابها أشدّ على نفسها من إمكانية العثور عليها!

***

ألقَت عليهم مسئولة الدار ابتسامتها المعهودة وهي تستقبل «أبا وردة» و «أم وردة»، سألت الأم ببعض قلق:

- إلى أين تم نقل ابنتنا؟

بدت الصدمة على وجه المسؤولة وهي تجيبها:

- لا عِلم عندي بعد..

وأظهرت من دفترٍ أمامها ورقة سلّمتها إلى الأم وهي تُضيف:

- كان من المُتفق عليه مع «مُدثِّر» أنه سيخبركم مكان نقله إليها، ولازال حتى الآن لم يُخبرنا كذلك!

هدر الأب غاضبًا:

- وكيف ينقلها بداية دون حضورنا؟

عادت المسؤولة إلى الخلفِ بظهرها وعقدت ذراعيها ناظرة إليه بحدّة مُجيبة سؤاله:

- من المُعتاد أن نرى الأب والأم هنا دائمًا.. لذا لا نحتاج أبدًا للبحث عنهم لإخبارهم شيئًا مهمًا كهذا عن ابنتهم، لأنهم بالفعل متواجدين طوال الوقت.

هبّ الرجل واقفًا وقد احمرّ وجهه وظهرت للعيون قبضة يده التي هيأها للبطشِ!

قامت زوجته من مكانها كذلك لكنّها أقبلت عليه تهدئه وتروضه حتى استكان بين يديها وللم إلى نفسه ذلك الغضب الذي تبعثر منه يمنة ويسرة، فتحت المسؤولة درجًا بجانبها وأخرجت منه بعض الأوراق، جمعتها في ملفٍ وهي تراجعها وتعيد النظر إليها مرة أخيرة ثُمَّ قدّمتها إلى الأم دون أن تحاول الالتفات إلى الأب، قالت بهدوءٍ:

- هذه هي الأوراق كاملة التي تخصّ ابنتكم، أخذ «مُدثِّر» بعضها وترك البعض.

جذبت الأم الملف من يدها لكن المسؤولة استوقفتها قبل أن تأخذه منها تمامًا وتحدّثت:

- أوراق ابنتكم غير مكتملة من البداية؛ فلا زال الملف ينقصه قسيمة زواجها.

جذبت الأم الملف هذه المرة بقوة من يد المسؤولة وابتسمت بارتباكٍ قائلة:

- الأوراق.. الأوراق.. عن أيّ أوراق تتحدثين؟ فمن تكون مصيبته في ابنته مثلنا؛ هل ينتبه لأوراق؟!

لم ترتح المسؤولة للتعليل ولم تهتم كذلك، أشارت بيدها إلى الباب وحيّتهم برأسها ولسانها يتحدّث بهدوء:

- تشرّفنا بكم.

خرج الأب والأم من خلفه تتبعه، ولمّا حاولت أن تبدأ حديثًا معه.. وجدته قد أمسكَ الهاتف واتصل برقمٍ ما، وعلى غير ما توقع سمع جرسًا.. ثوانٍ حتى أجابه الطرف الآخر؛ فابتدره هو غاضبًا:

- أهلًا أهلًا بزوجِ ابنتي.. أخيرًا أسمعتنا صوتك!

- .....

- لا.. لا.. يجب أن نلتقي، وقريبًا جدًا.

***

دخل «مُدثِّر» إلى الشقة المجاورة لشقتهِ ينظر إلى ذلك الحائط المتهالك؛ رآه وقد أُقيم بنيانه وصمد باطنه وتماسك، فعاد بقدمٍ متخبّطة إلى شقته، ولمّا دخلها ظل يبحث في حاجياته عن أيّ رسالةً قد يكون غفل عنها يوم أن حرق الرسائل، يبحث وروحه تعاتبه وتلومه، تؤنبه وتثير فيه دبيب الندم، وعلى الرُغم من ذلك.. لا زال يحاول العثورعلى أيّ أثر باق منها ليتأكّد أنّها هي صاحبة الرسائل، كان يعرف أنَّ هذا الطريق لا نهاية له، وأنَّ روحه لن تحتمل حربًا أخرى، وأنَّ الأرض مهما اتسعت من حوله فستضيق عليه الخناق يومًا حال فشله، وأنَّه مهما قطع على نفسهِ من وعود.. فسيعود ليندم عن كل خطوة سار بها في طريقٍ حاول السير فيه قبلًا وفشل، كان يعرف كلّ هذا، وعلى الرغم من ذلك؛ فهو يسيح في بيته لا يترك جزءًا منه، يضرب الأرض بقدمه والأركان بعينه، والأسقف بزفراته، يحاول أن يدبّر أمر نفسه وبحثه، قلقه واضطرابه.. وهو على هذا لازال يحمل الورقة التي تركتها «وِصال» بين يديه، ينظر إليها تارة ويبتعد بنظره عنها تارة وكأنّه يفرّ منها فرار المحموم، ثُمَّ لا يلبث أن يرتد إليها ارتداد الطفل إلى أمّه، استمر به حال العجز هذا بعض الوقت وهو لم يجد ما ينشده من بحثه.

تهالك أرضًا، يتنفس بصعوبةٍ، اقترب موعد عودته إلى الجيش؛ تذكّر مضايقات زملائه...

هُنالِك انتبه لذكرى ذلك اليوم الذي مُزّقت فيه رسالة من الرسائل، هبَّ من مكانه كالغريق الذي وجد سفينة نجاته، أرقل إلى حقيبة سفره، فتحها ويده تتحس باطنها حتى وصل إلى جيبٍ صغير فيها كان قد حفظ به الرسالة التي مزّقها بعض زملائه، ثُمَّ إنّه حينما أراد إحراق كل الرسائل.. نسي هذه في الجيب الصغير كما هي!

أخرج الورقة الممزقة بحرصٍ، وضعها أمامه ووضع جانبها الورقة التي تحصّل عليها اليوم من «وِصال»، قارن الخط والنقاط على الأحرف التي توضع على هيئة قلوب صغيرة، جاءت نتيجة المُقارنة لتؤكد عليه أنّ صاحبة الأوراق كلّها هي .. «وِصال».

آخر رسالة منها بين يديه، لا يدري لمَ شعر بطعناتِ سكين تخترق صدره، وتمزّق قلبه؟

ربما لأنّه بتلقائية غير متعمّدة فكّر فيها، فكّر في ذلك الوجه الصغير وذلك الجسد النحيل، فكّر كم قاسى كلّ ذلك فيها وكم تحمّلت روحها؟!

لم يستطع أن يعطِ نفسه الحقّ ليقرأ آخر رسالة، هو لا يعرفها لكنّه الآن صار يعرف من هي، الآن فقط شعر أنّ لهذه الرسائل حُرمة لا يجوز له أن يتعدّاها.....

أخرجه من تفكيره صوت الهاتف الذي أتى مبددًا كل فكرٍ حاول «مُدثِّر» جاهدًا أن يلملم شتاته في خلال الساعة السابقة،

أجاب دونما نظر وكان مُحدثه هو «راشِد» يسأله:

- كيف كانت زيارة الطبيب النفسي يا أخي؟ وهل استطعتَ أن تأخذ التقرير؟

تملّك الاضطراب من «مُدثِّر» وهو لا يدري كيف يجيب «راشِد»، يعلم جيدًا مدى احتياجهم لذلك التقرير، مرّت دقيقة حتى قال:

- لم أستطع مقابلة الدكتور اليوم.

- لماذا يا أخي؟!

- كانت هناك أعمال صيانة في العيادة.

سكتا معًا، كلاهما ينشغل بشأنٍ مختلفٍ عن الآخر، انتبه «مُدثِّر» على صوت أخيه وهو يهمس باضطرابٍ يشوبه بعض الخجل:

- هل المكان الجديد الذي وضعتَ به «وردة» في جودة المكان السابق يا أخي؟

- بل أفضل، اطمئن.

عاد صوت «راشد» وقد ملأه كلُّ الخجل:

- ألا تُخبرني مكانها يا أخي؟

- توقّف.. أخشى عليكَ مما تفعله بنفسك.

تغيّر صوت «راشد» وبدا به مسحة غضب:

- وماذا أفعل بنفسي يا «مُدثِّر»؟ ماذا؟ هل تراني أملك شيئًا لأفعله؟

لم يرد عليه فأكمل:

- ألا تنظر لحالي.. يداي مقيّدة بالواقع، مقيّدة بالمستحيل للأبد، وقلبي مسلسل بحبّها للأبد، أمّا روحي فهي مُعلّقة بين يديّ وقلبي إلى أن يشاء الله فيقبضها؛ فماذا بإمكاني أن أفعل.. وكلّ ما فيَّ ليس ملكي!

همس «مُدثِّر» مُستفهمًا:

- لماذا إذًا تريد معرفة المكان الذي ذهبتُ بها إليه؟

ساد الصمت، ولو أنَّ كلاهما يرى الآخر؛ لأدرك ذاك الـ «مُدثِّر» صاحبه وقد ألّمت بنفسهِ سريرة وهنٍ، فرفع وجهه إلى السّماء ولبث شاخصًا إليها دقائق عدة، حتى شعر بدمعةٍ حارة قد سقطت من عينه على وجنته ثُمَّ ملابسه.. ولا تزال تنحدر نزولًا حتى تستقر بباطن الأرض، ولا يعلم كلاهما أن الدمعات تنساب من عينيهما معًا.. كلٌّ على حاله وغريب مآله!

همس «مُدثِّر» بعد دقيقة:

- ليتني أستطيع إخبارك المكان، لكن قلبكَ يغلبكَ وأنا أعذركَ.. حقًا أفعل، لكن الله قد لا يعذر حبّكَ هذا، لذا أخشى عليك.

أتاه صوت «راشِد» مُختنقًا متوجعًا:

- لن أسألكَ عمّا تكتم في صدركَ يا أخي، ولا أنتظر منكَ أن تستمر في معذرتي، لأنّي أعلم.. أنّه لن يعذرني إلّا الله، وأنا أترك

قلبي وروحي وكلّ ما حواه صدري بيده وحده، يفعل بي ما يشاء، إن شاء رحمني؛ فقبضني، وإن شاء تركني حيًا أُعذّب؛ فراضٍ أنا.. وعزته وجلاله راضٍ.

استقبل الصغير كلام الكبير بدموعٍ تنحدر على وجهه لا يمتلك أمامها منعًا ولا صدًّا، علا صوت الوجع ثانية في هيئة نحيبٍ قادم وهمهمات يُفهم بعضها ويُجهل الآخر:

- تقف نفسي حائرة بين قلبي وديني، ووالله ما أجد خلاصًا إلا أن أقتل نفسي؛ فأجدني أبدلها عذابًا بعذابٍ.. فكم أنا شقي!

ثُمَّ أسأل الله كلّ وقت وحين.. هل من أمل؟ هل من حلّ؟ هل من قُرب؟ هل... ؟ وهل.....؟

تعبتُ يا أخي، تعبتُ ولا طاقة بي بعد الآن، لا بأس أبدًا أن أجلس مكاني ولا أقوم منه إلّا إلى قبري.

صرخ «مُدثِّر» زاعقًا:

- كفاكَ.. كفاكَ جلدًا لنفسكَ ومن حولك، ألا تثق في رحمة الله بكَ؟

ضحك «راشِد» ضحكة مقتولة الفرح هاتفًا:

- وهل تظنني أثق في شيء إلّا رحمة الله بي، والله ما أسقطني في بئر الظلم إلا البشر؛ ولن يخرجني منه إلّا ربهم، لكنّ الدنيا كلها صارت مقبرتي يا أخي.. فادع الله لي أن يرحمني؛ فيأخذني.

لم يستطع «مُدثِّر» أن يُسكته عن حديثه هذا، قلبه يعلم أنّ مصيبة أخيه لا حلّ لها، ولا يملك لها إلّا الصبر....

اختلّت أنفاسه وتعثّرت الأحرف وهي تخرج منه منكسرة:

- يفففففففعلللل الله الخيييير.

أمسكَ «راشد» عن الكلام هنيهة، ولو نظر إليه أخوه؛ لرأى سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئًا فشيئًا، حتى لبست وجهه كلّه، زفر زفرة ظنّ «مُدثِّر» أنها خلعت حجاب قلب أخيه، لكنّ صوته أتى متحطّم الشهقات:

- ما أشد ظلام الدنيا أمام عيني، وما أقبح سكّانها، إلا هي.. «وردة» هي بقعة الضوء الوحيدة على هذه الأرض، هي وأنتَ يا أخي، ومن قبلكم كانت أمّي.

شهق «مُدثِّر» على إثرِ هذه الكلمات شهقة أفزعت قلبه وأدخلته في حالة ألم، ألم لا ينفك مع كل نبضة تخرج منه ومع كلّ دفقة دماء تتخلله، عاد صوت «راشِد» أشد وهنًا:

- أغلق يا أخي.. أغلق، سأقوم لأقف بين يدي ربي أدعوه خلاصًا، فوالله لا أعود من صلاتي إلّا أن أغدو حيًا في الآخرة، أو أظل ميتًا في الدنيا!

صمت الهاتف؛ فنزل السكوت مستوطنًا كلّ شئ، وروح «مُدثِّر» ترتجف فزعًا وغضبًا، ولسانه يهذي بها قولًا:

- كان الله في عونِ ذلك الحبّ الذي وقع بين مستحيلين!

***

تنهدت بقوة.. وما التنهيدة التي تخرج من الرّوحِ إلّا ككوبِ ماءٍ صغير يُرسل إلى قرية اشتعلت أركانها واحترقت ذروتها وبلغت النيران فيها عنان السماء، ثُمّ تنزل تلك التنهيدة عليها رويدًا رويدًا.. فلا هي تمنع عن النّار أن تزيد ولا تُطفئ فيها حريق الوريد!

هكذا فعلت وهي تتذكّر «مُدثِّر» وحديثه المُتخبّط معها، لا تدري ما كان عليها أن تفعل، وكأنّها تقف بالمنتصف، تُقبل أو تدبر، لا تدري كيف تكون الحياة بعد الآن؟ ولا كيف لها أن تتعامل مع من حولها؟ تثِق أم تتوقع الأسوأ دائمًا.

تريد أن تتغيّر، تتمنّى أن تتغيّر، أن لا تظل للأبدِ بتلكَ السذاجة!

تداخلت الأفكار برأسها؛ فزادت بعقلها أمارات الارتباك والحيرة والفزع، ماذا لو كانت كلّ هذه المشاعر قميصًا؛ فتخلعه عنها وقتما تريد!؟

هربَت إلى غرفة أختها علّها تُنشئ معها حديثًا يدفع بكل تلك الحيرة بعيدًا حتى ولو مؤقتا..

لم تشعر بنفسها وهي تقتحم الغرفة دونما استئذان، أفاقت على فزعة «عاليا» ونظراتها الغاضبة إليها الساخطة عليها، تركت هاتفها أمامها وقامت تسألها سرّ هذا الدخول؟

جلست «وِصال» وهي تخفي عينها عن أختها حرجًا، مرّت دقيقة حتى تكلّمت:

- لماذا لم تزوريني في بيتي يا أختي؟!

اندهشت «عاليا» من سؤال أختها، رفعت حاجبها باستنكار ثُمَّ أقبلت حيث «وِصال» وجاورتها ضاحكة وأجابت:

- يُسأل في هذا الحاج «مصطفى».. فأنتِ تعلمين شِعاره في هذا الأمر..

«نحن لا نتطفل على أحدٍ.. ومن أراد زيارتنا فأهلًا به وسهلًا»

- هل ترين قناعته هذه صحيحة يا «عاليا»؟

حرّكت «عاليا» كتفيها بلا مبالاة وأجابت:

- أنا لا أرى الزواج نفسه شيئًا صحيحًا.. فكيف بالزيارات!

كانت إجابتها كفيلة لتزلزل أيّ أفكار برأسِ «وِصال» وتقذف بها بعيدًا عنها لتسألها بكل ما حوته كلمة استفهامٍ من معنى:

- لماذا ستتزوجين إذًا؟!

أمسكت «عاليا» هاتفها باهتمام وهي تُجيب سؤال أختها بصوت صادق:

- لأُنجِب.

قفزت «وِصال» من جلستها بدهشةٍ هاتفة:

- أتمزحين؟!

- أبدًا.. ليس بمثلِ هذا.

- تتزوجين لأجلِ الإنجاب فقط!!!

- ولمَ لا؟ أتمنى أن أكون أمًّا، أراها أروع وأصدق عاطفة في الوجود، وبما أننا مسلمون؛ فكان لزامًا عليَّ الزواج لأُنجب.

- وهل الزواج إنجاب فقط؟ الزواج حياة، تكامل، دنيا كبيرة تجتمع في شخصٍ واحد فقط.. هذا هو الزواج يا أختي.

- وهل هذا هو رأيكِ بعدما جربتِ تلك الدنيا الكبيرة؟

تفاجأت «وِصال» من السؤال؛ فألجمتها الحقيقة قليلًا، استجمعت أحرفها رويدًا رويدًا ثُمَّ أجابت:

- ليسَت كلّ الزيجات متشابهة يا أختي.

- أخطأتِ يا أختي.. بل كلّ الرجال واحد، وإن تزوجتِ واحدًا فقد عرفتِ الجميع.

- ما هذا الحديث الذي تتكلمين؟

- هو حديث صادق منّي إليكِ، ويجب أن تعلمي أنّي أملك من الشجاعة ما يكفي أن يجعلني أكثر صدقًا منكِ.

- ماذا تعنين؟

- أعني أنّي ما رأيتُكِ أكثر ثباتًا وقوة إلّا بعدما فقدتِ زوجكِ وحملك، وهذا يدفعني للتفكير في أمور كثيرة وبما أنّي على يقين أنّي وإن سألتكِ.. فلن تجيبي على أيّ حال، لهذا أنا أعتبر نفسي أكثر صدقًا منكِ.

ازداد اندهاش الأخت من أختها، تحيّرَت من أمرها، لم تطل حيرتها كثيرًا هذه المرة، فقد وجدت أختها تفتح الهاتف وتكتب في جروبها:

«الخطة تسير على أكمل وجه»

#الأدمن

سألتها «وِصال» باهتمامٍ.. أيُّ خطة؟»

التفّت «عاليا» إليها بجسدها كلّه، مالت عليها قليلًا وهي تنظر في عينيها بثبات وأجابتها:

- سأحدثكِ بكل صدقٍ إن فعلتِ معي المثل.. فما قولك؟

- وفيمَ كذبتُ عليكِ من قبل لأصدقكِ الآن؟ أنا لا يهمني غير أمر زواجك وفقط.

عادت «عاليا» بظهرها إلى الخلف وزفرت بملل قائلة:

- أمر زواجي هو شأني أنا فقط.. فلا تشغلي نفسك يا أختي، والآن أستأذنكِ لأتجهز.. فاليوم سيعقد «عَليٌّ» عليَّ.

وكأنّه حيل بينها وبين أختها بحائط من حديد، ترى في عينيها قسوة وقوة لم ترهما فيها من قبل، تخشى أن تنتوي أختها البطش بقلبِ غيرها؛ فيرد الله مكرها عليها.. تخشى بحقٍ عليها.

عادت إلى غرفتها تجرّها الخيبة، صار بينهما صمت لا يشبه الصمت، كلامٌ عالقٌ لا يشبه الكلام، ورمال متحركة تحوي الكثير من التخبّط، أمسكت هاتفها تدخل إلى الصفحة التي باتت جزءًا

كبيرًا من حياتها، لترى منشورها الذي أخبرتهم فيه أنها فقدت حملها قد لاقي انتشارًا كبيرًا واهتمامًا من الجميع...

ثُمَّ انتبهت أنّه تمّ إضافتها إلى جروبٍ لا تعرفه، اسمه .. «ميلاد الشمس»

دخلَت إلى الإعدادات لتخرج من الجروب لكن أدهشها أن الجروب لا يحوي غير خمسة أعضاء، وهو مع ذلك ليس جديدًا، دخلت إلى المنشورات تقلّب فيها، الأعضاء قلّة ومع ذلك كلّ المنشورات تشتعل بالتعليقات والتفاعلات، وقعت عيناها على كثير كلمات لكن ما استوقفها حقًا كان نقاشًا بين مسئول الجروب وعضوة من العضوات...

« لم تعد الحياة أهلًا للحرص عليها.

- ألا تحبِّين الحياة؟

- أحبّها لكنّها أسوء من أن يُتمسّك بها.

- تخيّلي أنّكِ استيقظتِ ذات صباح وهذه الحياة.. هذه الورود، هذه الأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والضحكات من حولك والابتسامات لك ومن أجلك، كلّ هذا ستُفارقينه في خلال أيام؛ فماذا ستفعلين؟

- سأتمسّك بالأيام التي بقيت أمامي وأحياها على أكمل وجه.

- حسنًا.. ستتمسّكين وتحاولين أن تسعدي، فماذا لو ذهبت كل أسباب سعادتكِ؟ حاولتِ وحاولتِ لكنّك بالنهايةِ فشلتِ.

- على أيّ حال.. العالم مكان قاسٍ وسيء وغير عادل.

- وهل هذا عذر لكِ؟

- عذر!

- نعم، تتخذينه عذرًا! طوال الوقت أسمع الناس تقول أن الحياة ليست مثالية، وغير عادلة، أوتعلمين..

- ؟؟؟

- إنهم على حق، الحياة حقًا ليست مثالية على الإطلاق، لكن لا يحق لكِ أبدًا أن تستغلي هذا كعذرٍ.

- أنا لا أستغل أيّ شيء يحدث كعذر.

- بل تفعلين، ومعظم الناس يفعل، يتخذون من قسوة الحياة وألمها وأوجاعها وهموها عذرًا للتقصيرِ وللكسلِ، عذرًا ليدفنوا إنسانيتهم داخل صدورهم، ورحمتهم داخل قلوبهم.

- وماذا بيدنا أن نفعل؟.. ونحن.. وأنا.. مجرّد أشخاص في حياة كبيرة يغلبها الظلم!

- هل جربتِ يومًا أن تفعلي ما عليكِ وفقط، أقصى ما بيدكِ ولا تنظري لتقصير غيركِ، حتى إذا ما نظر غيركِ إليك لم يرَ تقصيرًا؛ فيفعل ما عليه أيضًا.

- وهل برأيكَ سيفلح هذا؟

- يا ابنتي الحياة ليست مثالية، ولن تكون أبدًا، لكن عندما

يتصرف شخص صالح مثلكِ بطريقة صالحة؛ فلربما تصبح الحياة مكانًا صالحًا للسعادة يومًا ما. «

انتهت من قراءة ذلك الحوار على الجروب؛ أحسّت روحها أُلبست رداءً من أملٍ، وأوقدت أمام عينيها جذوة من بعث الحياة، ويكأنّها تتعرّف عليها من جديد؛ لذا لم تخرج من الجروب ولن تفعل أبدًا.

***

استقبل «مُصطفى» أصدقاءه بترحابٍ شديد، هذا يهنئه وهذا يدعو له بالزواج قريبًا، وهذا يمزح في كونه سيغدو أعزبًا، حتى انتبهوا جميعًا لحقيقة عودة «وِصال» ثانية إلى عناية أبيها، صمت البعض واعتذر البعض، ابتسم هو من ارتباكهم وقال:

- لا أُخفي سعادتي برؤيتها في بيتي كلّ يوم، لكنّي تمنيتُ أن أطمئن عليها هي وأختها قبل أن أموت.

نهره أصحابه عن هذا القول؛ فأكمل دون التفات لنهرهم له:

- والله إنّي أحبهما جدًا لكنّي أثق أن حياة الفتاة لزوجها وأولادها وبيتها، لهذا أتمنّى أن أرتاح من قلق ترك «وِصال» وحدها دون أن يكون هناك من يكون سندًا وعونًا لها على هموم الحياة، رجلٌ مثل «غالِب» رحمه الله، كان نعم الزوج لها، كنتُ أرى هذا في عينيها وكنتُ أراه أكثر في عينيه هو.

- وماذا كنتَ ترى يا رجل؟

تنهّد «مُصطفى» وهو يجيبه:

- كنتُ أرى ذلك الحبَّ الكبير الذي يكنّه لها، كان واضحًا وضوح الشمس في السّماء، لم يكن يحدثني عنها إلّا أنّها شمس حياته والتي دونها لأظلم عمره كله.. وها هو مات وتركها وحيدة من بعده.

- أدامكَ الله لها يا «أبا وِصال».

مسح عبرة غلبت ثباته ونزلت على وجهه، ثُمَّ تنحنح هاتفًا:

- ءامين، والآن هيا ادخلوا واجلسوا قبل أن يبدأ العقد.

أقبَلت «أم الخير» على «وِصال» و «عاليا»؛ فعانقتهما عناقًا طويلًا، كانت تسير وفي قدمها عرجة بسيطة، لم يلحظها إلّا «عليّ»؛ فأقبل عليها مُستفهمًا مُستعلمًا، ولمّا أدركَ خبرها كلّه؛ حاول أن يقنعها بعدم الرحيل، لم يطل حديثه معها عن دقائق، فقد نادوه للعقدِ..

هنالك أقسم عليها أن لا تُغادر وأنّه سيجد لها سكنًا آخر من الغد، ومع إصراره وقسمه الذي أقسمه؛ عاهدته أن تبقى بسكنها يومًا آخر ثُمَّ رحلت سريعًا عن الحفل حتى لا يلحظ أحد تلك العبرات التي تملّكت منها تمامًا ومنعتها من الحديث بكلمة واحدة.

كانت الأضواء بكلِّ مكان، هكذا هو وصفها بكلّ بساطة، لم يُترك مكان إلّا وتخلله الضوء، ربما صُنعت الأنوار لإزاحة العتمة

ودفنها في عمق الأرض أو في خبايا السحاب، لكن وعلى الرُغمِ من كل الضوء، إلّا أنّه لم يستطع أن يتخلل قلب «عاليا» أبدًا، كلمتها تتعلّق بقلبها.. «أتزوج لأُنجب فقط»!

القلب يئن، يتمنّى لو أنّه لم يكن لها، لو أنها لم تكن هي صاحبة الروح التي تتخلله، نبضاتها تصرخ..

«ذاك الذي هو أمامكِ يا حمقاء.. يهواكِ»

لكن كيف لقلبٍ ما عرف أبدًا ولا وسمع أو رأى إلّا السوء؛ فأنَّى له أن يشعر إلّا بالسوء، وأن يتوقع إلّا السوء!

هذا الدبيب داخلها يناشدها أن ترحم ذاك الفتى ولا تدفن قلبه في أرضها، لا يُطالبها أن يكون تاج رأسها، لكن أقلّها..

«كوني له زوجة؛ فيكون لكِ زوجًا»

أليست تلكَ صفقة عادلة!

هنالك اقترب «عليٌّ» منها وقد بدت على وجههِ تلك العلامة الباثقة من إثرِ الحبِّ الطاهر الشريف، الذي يُشرق على القلوبِ الحزينة فيسعدها، والأفئدة المظلمة فيُنيرها، والأجنحة الكسيرة فيجبرها، ثُمَّ إنّه العزاء الوحيد عن كل بهجة غائبة في هذه الحياة..

فلتغِب الحياة نفسها وليبقَ الحبُّ في القلبِ حيًّا!

نظرَت «عاليا» إليه؛ فارتد بصرها إليها مُختلفًا عمّا غادرها، فقد رأت ويا لأعجبِ ما رأت! أبصرت السعادة في عينيه واضحة

حاضرةً تملأ كلّ تقاسيم وجهه، وحركات يده، واعتدال كتفه، وشموخ أنفه، وفخر أنفاسه وكأنّه حاز جنّة الدنيا والآخرة، ثُمَّ رجفة شفتيه وهو يهمس لها بكلّ شوق الدنيا.. «عاليا أنتِ زوجتي!»

***

أقبل «أبو راشِد» مُتأخرًا على والدي «وردة»، جمعتهم طاولة واحدة كل منهم يكنّ للآخر أمرًا في نفسه، تعالى صوت النادل يسألهم عمّا يشربونه، لكنّهم صرفوه سريعا دون اهتمام، التفتت المرأة إلى «أبي راشِد» قائلة له:

- لم يكن هذا اتفاقنا معك.. أين اختفيت كلّ هذه المدة؟

لم يبد عليه التأثر بسؤالها الحازم ولا بنظراتها النارية؛ فعاجله زوجها هاتفًا بغضبٍ وهو يدق الطاولة بكفه:

- هنا سينتهي كل شيء.. نفذ الاتفاق وإلا ستندم.

- عن أيّ اتفاق تتحدث؟.. بضاعتكم فسدت في وقتها.

ثُمَّ إمعانًا في إغضابها؛ عاد «أبو راشِد» بجسده إلى الخلفِ مستندًا إلى ظهرِ المقعدِ، يشبك أصابع كفيه فوق قدمه اليمنى التي تلتف حول اليسرى في مظهر يوحي بالكبر والعناد!

احتدم الصراع في نفس «أم وردة» لمرأى تصرفات الرجل الغير مبالية بها؛ فارتفع صوتها حتى غلب صوت زوجها صائحة:

- لاااا، حق ابنتي التي وضعتها بين الحياة والموت لن يضيع.

أكمل زوجها جملتها:

– نعم، نريد المال الذي اتفقنا عليه.. فلم نعطك فلذة كبدنا هباءً.

هنا هب «أبو راشد» من مقعده منهيا ذلك الحوار تمامًا، قال بنبرة مُستهزئة:

كفا عن هذا الهراء والتمثيل المُبالغ به؛ فثلاثتنا نعرف جيدًا أن «وردة» ليست ابنتكما من الأساس.

***

وبعد أسبوعينِ...

أحيت مشيتها المستكينة حروفها في وجدانه.. وكأنه يكتشف طريقة جديدة لقراءة معانيها من خلال خطواتها، وقتها، التفاتتها نحو السماء وكأنها تبحث عن حلم ضائع، زلزلة قدمها وهي تضرب بها الأرض تُعاتبها بلطفٍ عن كلّ مرة سابقة حيّرتها في سيرها، حركة أصابعها وهي تعزف لحن القلق، حتى أنه ليكاد يجزم أنه سمع موسيقاها تستقر في أذنيه ومنها إلى قلبه!

دنا منها رويدًا رويدًا، تباطأت خطواته أكثر ما إن لمح التوتر جليًا فوق قسماتها..

منحها بسمة، لكنها لم تكن كافية لوأد قلقها، ودفن خوفها الغريزي من تقلص المسافة بينهما؛ فتوقف.. تاركًا أربعة خطوات كبيرات تفصله عنها، سألها:

- كيف حالكِ؟

تحركت شفتاها بهمهمةٍ لم يفهمها؛ فعاجلها ما إن رصد نيتها للهرب:

- منذ المرة الماضية كنتُ آتي تقريبًا كلّ يومين لأجدكِ.

أصابتها الحيرة من جملته وملأ وجهها الخوف، وجدته يُكمل باسمًا:

- تفكّرتُ كثيرًا ثُمَّ وجدتُ أنّه من حقّي أن أسألكِ شيئًا.

رفعت صوبه عينين متسائلتين مفعمتين بالقلق طال سكونه وعظم القلق المرسوم فوق صفحة وجهها حتى قال:

- عرفتِ عني سرًّا المرة الماضية، أولا ترين أنّ من حقي الآن أن أعرف أنا أيضًا سرّكِ.

سددت نحوه نظرات مستنكرة مندهشة همَّت بالمغادرة؛ اعترض طريقها، أعاد كلماته:

- من حقي أن أعرف الشخص الذي كُشِف أمامه جزء من نفسي مخبوء عن العالم.

لملمت شتات شجاعتها ظنّت أنّ صوتها خرج منها صراخًا حادًا لكن الحقيقة أنّ صوتها في أذنيه كان كتغريدة عصفور جريح:

- رجاءً، ابتعد عن طريقي.

ابتسم ثانية، وقال برفقٍ أكبر:

- ألا يمكننا أن نصير صديقين؟

حاولت المغادرة ثانية، فحاول منعها بسدِّ الطريق أمامها، لكن القلق والفزع الذي كان يسكن عينيها استحال خوفًا، ارتجف قلبها تقطعت أوصال ابتسامتها لم يتحمل أن يؤلمها بحضوره أكثر، فمن يعرفها غيره!

قال بسرعة:

- إن أردتِ شغل وقتكِ بأمرٍ طيب لن يُتعبك ويُكسبكِ مالًا؛ فتعالي هنا.

قال جملته هذه.. وضع بيدِ «وِصال» بطاقة بها عنوان دار الرعاية الجديد الذي به «وردة»، ثُمَّ حررها من قفص إلحاحه.. وتنحى عن طريقها، عبرت أمامه في اضطراب، تشيعها نظراته المتكسرة من خلفها، وبداخلها ينمو إحساس غريب بالخوف من كل شئ حولها، وليس فقط ذلك الـ «مُدثِّر» أمامها.

تشعر بهِ هُناك بالزاوية، حيث لا وصول لضوء الشمس في وضح النهار، أعين تراقبها، مُسلّطة عليها لا تتزحزح، يدبّ القلب في صاحبها دبيبًا مؤلمًا موجعًا، وتتكور قبضة يده في غضبٍ شديد وشوق أشد عنفًا!

***

مرَّت الأيّام على «راشِد» وقد زاغ منه دليل حياته؛ فبات فاقد الإدراك والتوازن، مسلوب العقل ممزق الفؤاد، يسير في تيهٍ يتوكأ على عصاه، تضطرب في يده!

يسبل فوق جسده الناحل أسبالًا من بقايا أناقته، وأثرًا من آثار خجله، فلا هو يدري.. أهذا رداء أمسه.. أم قبل هذا.. أم قبله؟

يقف صدر النهار على زوايا الطريق يسأل الله أن يُنزل عليه ساعة قضائه؛ فيأخذه أخذ الراحم لقلبه ولزلته، حتى إذا زالت الشمس وانزوى ضوءها وخفت حضورها؛ ذهب إلى بقعة من الصحراء قريبة، فيبحث فيها عن صخور وليدة الهجر؛ فيجلس فوقها، يُزاحمها أحزانها، يرقب الأفق البعيد، حتى إذا ما نزلت عليه ريح قد ولدتها نجوم الشوق في عليائها؛ استقبلها وهو يفتح مغاليق صدره، ينزع عنه أرديته ليستقبل تلك الذرات التي وجد فيها ريحها، وألمّ منها ببعض آثارها، ويظنّ أنها رسول من الله إلى قلبه، يمسح عليه ويقول له..

«اثبت يا قلب.. اثبت فهذه بعض أنفاسها قد جئناكَ بها».

ويظلّ ليله كلّه يتحسس نبض الأفق.. حتى إذا ما أدركَ دخول الفجر دون سماع أذانه، قفز قلبه في صدره قفزة الملهوف لحديثٍ بين يدي مولاه..

فإذا ما استوى واقفًا وقرأ آيات ربه وبكى قلبه ونزفت عينه، ركع ركوع الضعيف، ثُمّ سجد سجود العبد الذليل، وندب شوقًا يلهب صدره، وحرقة تُميت روحه، وعذاب يؤجج كل آلامه!

ولا يزال هذا شأنه حتى يطلع النهار؛ فيتناول عصاه ويعود آفلًا

إلى الدار التي يسكنها، لكنّه اليوم قرر أن عودته إليها لابد واجبة، فلملم بعض ملابسه وكل ما يملك من أموال واتجه إلى الباب غير عابئ إلّا أن يكون هناك، أمامها.. حيث هي، روحًا، جسدًا، فكرًا، نفسًا، لا يعنيه إلا أن يراها وإن قتلوه دونها!

❊❊❊

«غيرنا الباب؛ فزاد الرزق والحمد لله»

هكذا استهلّت «أم الخير» كلامها مع «عليّ» وهي تشكره على ذلك المكان الذي وجده لها ولزوجها للسكن فيه بديل المكان القديم، وبالأخصّ بعدما بدأ يتوافد بعض الأشخاص يسألون عن «أبي الخير»، وهي لا تدري هل وراء سؤالهم خير أم شر؟!

لم يجد «عليّ» ما يرد به على سيل دعائها إلّا أن ظلّ يؤَمّن من كلّ قلبه، ثُمَّ لما بدأت بالدعاء لـ «عاليا» وجد أنفاسه تضطرب وهو يتذكر صاحبة الاسم، كم يحبّها! ويشتاق لليوم الذي سيجمعهما فيه بيت واحد.

أمّا صاحبة الهوى في قلبه فقد كانت تتربع على عرش جروبها وكلّ من حولها ينهل من نبع حكمتها وأفكارها الخالصة الثابتة من أجله ومن أجل أن لا يبقى بعد هذه الزيجة إلّا طفلها!

❊❊❊

كان مساءً ذلك اللقاء، عربة صغيرة يجلس بها ثلاثتهم، الزوجة تتحسس حقيبة يدها لتتأكد أن هناك مكان لوضع المال، والزوج

يتلفّت يمينًا ويسارًا ليتيقن أن لا أحد يراقبهم، أما ثالثهم «أبو راشِد» فقد جلس معتدلًا غاضبًا ناقمًا، ولمّا سأله الزوج عن سبب سخطه؛ أشار إلى حقيبة الزوجة صائحًا:

- بالطبع غاضب.. فلم يكن هذا اتفاقنا.

نظرت إليه الزوجة شذرًا وسألت بتهكّمٍ:

- وماذا كان الاتفاق يا عريس؟

مال بجسده تجاهها وهو يجيبها بصوتٍ أشد غضبًا:

- كان الاتفاق أن المال بعد إتمام الأمر كلّه وليس بعد ضياع كلّ شيء، أنا أعيش كالهارب وأنتم لا همّ لكم إلّا المال!

- وأنتَ.. أليس المال كذلك هو نهاية القصة عندكَ وهو الجائزة الكبرى؟!

قالها الزوج بسخرية؛ فعاد «أبو راشِد» بظهره إلى الخلف وهو يلوي وجهه محاولًا كتم غيظه حتى لا يرد عليه.

طرقات على باب السيارة أجفلت ثلاثتهم، فتح أكبرهم النافذة، وكان ضابط الشرطة هو الطارق، سأل عن سبب تجمع ثلاثتهم في هذا التوقيت وهذا المكان بتلك الكيفية، طلب بطاقاتهم؛ فأخرج «أبو وردة» بطاقته هو وزوجته أمّا «أبو راشِد» فكان بلا بطاقة هوية؛ فتمّ اصطحابه إلى قسم الشرطة.

***

لازال شعور المراقبة هذا يسيطر عليها، وكأنّ هناك من يتبعها ويتربص بها، حاولت مرارًا نفض هذا الهاجس عن رأسها، فتعمّقت أكثر وأكثر بالجروب، جعلته محور وقتها واهتمّت بكلّ حرفٍ فيه، صارت منشورات الجروب الجديد أكثر جرأة وصراحة وصدقًا، حتى أنّها اكتفت به عن الذهاب للطبيبة النفسية!

مع الوقتِ اكتشفت «وِصال» أنّ كل العضوات واللاتي لا يزدن عن الخمسة قد مات أزواجهن، كذا تفاجأت أن كلهن قد أنجبن لكن شاء القدر أن يموت أطفالهن بعد وفاة أزواجهن!

كان الأمر عجيبًا بالنسبة لها لكنه لم يمنعها من التعمّق أكثر في الجروب والاهتمام بكلّ حرفٍ يُكتَب فيه، تدخلت هي اليوم ولأول مرة في النقاش الذي فتحه أدمن الجروب؛ فقد كتب الأدمن يسأل:

«- متى تنتهي الحياة؟

وكانت هي وحدها من حضرت النقاش؛ فأجابت:

- بموتِ ما تحب ومن تحب.

- أخطأتِ، فالحياة لا تنتهي عند ظرف معين أوشخص معين، وعندما يرحلون أو ينتهون؛ فيتوجب عليك الموت حينها!

- لكنّ الحياة لا نعيشها إلّا بما نحب، فلو ذهب من نحب.. ما فائدة الحياة إذًا؟!

- الحياة لم تكن أبدًا بهذا التعقيد، ليست بتلك الصعوبة التي تتصورينها.

- وماذا عن شعور الفقد، فقد من نحب، فقد السعادة، فقد أنفسنا؟!

- ولو فقدتِ كل ما تملكين.. صحتكِ وجمالكِ ومالكِ، وكلّ ما هو عزيز على قلبكِ؛ فلا شيء من هذا سيأخذكِ إلى موتكِ..

معلومة صغيرة احفظيها.. «لا شيء يأخذنا للموت، الموت هو من يأتي إلينا، استحققنا هذا أم لم نستحق، عِشنا الحياة أو تكوّمنا على رصيفِ، الموت يأتي في النهاية؛ لذا.. ما دمتِ تتنفسين؛ كوني حيّة»

انتهى النقاش وانتهت معه حيرة كانت قد تملّكت رأسها منذ أن أعطاها «مُدثِّر» تلك البطاقة، سألت نفسها ...

« لمَ لا أتخذ من اليوم فرصة؟!»

ربما خشيت أن تُجيب سؤالها أو أن تثق في أنها أهل للإجابة، لكن على أيّ حال هي سألت والإجابة كانت تستقرّ بين يديها..

والآن فلتذهب ولعلّها تُغلقِ تلكَ الصفحة القديمة بآلامها وأحزانها!

***

سألها وهو يمدّ يده حيث استقرّت أناملها تلعب بقلمٍ موضوع على الطاولة:

- هل يمكنني أن أتمنّى منكِ فعلًا تفعلينه يومًا ما؟

رفعت «عاليا» إليه بصرها مُدعية الاهتمام قائلة:

- تفضّل.

امتلأ سعادة وهو يرى ترحيبها بطلبه؛ فقال:

- عديني أنكِ ستستقبلينني كلّ يوم بعد عودتي من العمل، ليس عند البابِ مُباشرة.. من الداخل قليلًا حتى لا يراك أحد من الجيران.

امتلأت نفسها دهشة وهو يُضيف:

- عند الزاوية تقفين؛ فأراكِ أنتِ أول ما أرى، فقط قفي هناك لا تتحركي وأنا سآتي إليكِ لأسلم عليكِ، لكن يجب أن أراكِ أولا.

تعجّبت من طلبهِ وكلامه، شعرت بخفقة في قلبها ألهبَت صدرها، تخبطت، تعثّرت، أفاقت على خوفها من السقوط.. السقوط فيه!

تكلّمت بثباتٍ محاولة تغيير الأمر:

- ألا تُفكّر في تغيير نشاطك؟ أقصد هل ستظل عطّارًا للأبدِ؟

ابتسم وقد أدركَ هروبها وفسّره خجلًا منها وحياء، أجاب:

- كلّ مهنة ولها أسرارها وطرقها الخفيّة وخبرتها.. وأنا تحصّلت على كلّ هذا والحمد لله، تشرّبتُ درب العطارة تمامًا؛ فلمَ أُضيّع كل هذه الخبرات؟ وأظنّه مجالًا طيبًا للرزق.

ظهرت على وجهها أمارات الخيبة وهي تسمع كلماته، سألها:

- هل تكرهين عملي؟

- لا، ليس الأمر هكذا، لكنّي أندهش من اختيارك لهذه المهنة وتركك العمل بشهادتك!

ضحك من قولها قائلًا:

- وهل بقيَ شخص يعمل بمهنتهِ في هذا الزمن يا «عاليا»؟!

قامت من أمامه هاربة منه ومن نفسها، قليلًا قليلًا.. تعود إليها أفكارها وخططها؛ فتركن إليها مُستمسكة بها مُختبئة في طيّاتها.

بعدما انصرف «عليّ» هرعت إلى هاتفها، تُحاول إفاقة نفسها ولملمة شتاتها، كتبت منشورًا:

« إذا فتحتَ طريق روحكَ لأحدٍ؛

فلا تلومَن إلّا نفسك في النهاية..

لأنّكَ إن فرطتَ بقلبكَ؛ فكيف يُحافظ عليه غيركَ؟! «

مع تحيات صفحة #اتضحك_علينا

#الأدمن_عاليا

***

دخل إلى قسم الشرطة مُغتاظًا مُهتاجًا، يستعيد تلك الساعة الماضية واتصال والده به، رفض أولًا أن يحضر، لكنّه ساومه قائلًا..

«مجيئك هذا سأُجازيكَ به سرًا؛ سيرضيك جدًا»

وها هو الآن يتملكه الفضول، كذا يفتك به الغضب، ينتظر أن يرى ما في نيّة أبيهِ من سوء جديد له ولأخيه ولـ «وردة».

أخبروه أن ينتظر حتى ينادوه، جلس مضطربًا تأكل روحه ذكرى آخر لقاء بينه وبين والده، اهتزّت قدمه وسخُن قلبه، وعلا

دبيب الألم في صدرهِ، هُنالك ناداه أحدهم ليُقبل عليهِ، بخطى مُتعرّجة تتقدّم وتتأخر في آن! دخل الغرفة فوجد والده يقف في زاوية ذليلًا خاضعًا ينوء بالاحتياج ويصرخ بالنجدة، ابتعد عن وجهه بنظرهِ، تمسّك بآخر قواه في التحمّل، خرجت أحرفه مُتخبّطة قليلًا لكنها مفهومة:

- أنا ابببببنه .. وهذه بطاقتي وبطاقققققققة والدي.

عاد الضابط بظهره إلى الخلف وسأله:

- وماذا كان يفعل والدك في هذا التوقيت بهذا المكان المشبوه.

نقل «مُدثِّر» بصره بين والده والضابط باستغراب واستنكار مما أوحى للجميع أنّه يجهل ما كان يفعل، ألقى الضابط على أذنه أسماء من كانوا مع أبيه، تفاجأ بشدة من اجتماع ثلاثتهم معًا في هذا التوقيت!

مرّ الوقتُ بطيئًا حتى أُخليَ سبيل والده وسارا معًا للخروج من القسمِ، هُنالكَ التفت «مُدثِّر» تجاه أبيه وأمسكه من كتفه بقوة صائحًا:

- علامَ تآمرتم الآن؟؟؟؟

فزع والده من سؤاله؛ فهتف:

- لا شيء.. لا شيء...

صرخ به «مُدثِّر»:

- كفاااااااااك.. كفاااااااااك

حاول والده الإفلات من قبضته لكنّ «مُدثِّر» شدد في مسكتهِ صائحًا:

- أنا لم أكن لآتِي لولا أنّك قلتَ ستخبرني بالسرّ وراء كلّ هذا.. الآن أخبرني.. هياااا.

تلفّت والده حوله ثُمَّ رفع يده مترجيًا:

- سأخبرك.. والله سأخبرك لكن ليس الآن، لنذهب من هنا أولًا.. هيااا.

***

«هل جربتَ يومًا أن يسكنكَ الحنين؟
وأن يغمر قلبكَ شوقٌ يتلوه شوق!
وأن تسير بطريقٍ تجهله، وترى أُناسًا تجهلهم..
لكن الشوق الكامن بصدرك يألفهم ويعرفهم!
هل سمعتَ يومًا نداءً خفيًا؛ ولّما تلفّتَّ تبحث عنه..
أدركتَ أن النداء كان من فوقكَ، من أعالي السّماء؟!
أخبرني.. هل فعلتَ؟»

#ملحوظة

«لا تنسوا الدخول على رسائل الواتس للأهمية»

مع تحيات صفحة #ميلاد_الشمس

#الأدمن

أنهَت قراءة المنشور، سَرَت بجسدها رعشة خفيفة، تحرّكت يدها بعفوية تجاه بطنها حيث كان حملها، هاجت مشاعرها، لا تدري

لمَ؟! لمَ تذكّرت ذلك الفقد الآن؟!

ولا تعلم لمَ يُثير بروحها الوجع؟!

فذلك الذي كان في أحشائها لم يكن إلّا تذكيرًا لها بالذي هو بعض منه! لعلّ الله رحمه من أن ينشأ تحت يديها.

لكنّه بعض منها كذلك.. بل كانت لتجعله كلّه منها، صوته وكلامه وأفعاله، خصاله وآماله وأحلامه، ربما...

وتبقى ربما واحدة معلّقة في الهواء.. موضعها أقرب للسّماء، فيها الأمل. كلّ الأملِ أنّها إذا ما صارت يومًا أمًّا ستكون أهلًا لذاك.

كانت قد وصلت حيث أرادت؛ فترجّلت من وسيلة المواصلات، دَخلت المبنى المُقابل لها؛ مرّت دقائق حتى عثرت على الغرفة التي ترجوها، ولمّا استوت داخلها؛ رأته، كان يجلس عند قدمي «وردة»، اندهشت من رؤية الحاضرة الغائبة.. وجدتها صغيرة السن، قام هو يستقبلها، يسعد برؤيتها لكن شقاءه يرسم على وجهه سطوة الحزن ويسطرها في كل نظرة وعَبرة، كأنّما صار الحزن له ضرورة من ضروريات الحياة، وعليه أن يهبط بآلامه وأوجاعه إلى قرارةِ نفسه؛ فيودعهم جميعًا هناك، ثُمَّ يُغلِق دونهم بابًا من الصمت والثبات، وها هو.. خلفه «وردة» وأمامه «وِصال»؛ فلا يدري من أيّ الآلام يفرّ ولا إلى أيّ الآلام يسير؟!

وجدت في نفسها بعض طمأنينة؛ فلجأت إلى صمتٍ لا

تقول فيه خيرًا ولا شرًا، فتكلّم «مُدثِّر» وهو يُشير إلى «وردة»:

- هذه هي مُهمّتك، أضطر للمغادرة من أجل فترة تجنيدي وأحتاج أن أطمئن بوجود أحدٍ معها.

اقتربَت «وِصال» من سرير «وردة»، ألقَت عليها نظرة سريعة، رقّت لحالها، سألته:

- أين أهلها؟

- لا يتواجدون دائمًا.

تعجبت من إجابتهِ؛ همّت أن تسأل سؤالًا آخر لكن استوقفها رؤية «مُدثِّر» وهو يُقبل على قدمِ «وردة» فيُدثّرها جيدًا بعدما تحرّك من فوقها الغطاء، فَهِم سؤالها الذي لم تسأله؛ فأجاب بثقةٍ:

- لا حاجة إليهم، أنا أخدمها وإن كنتُ على الجمرِ.

***

كان يُناديها باسمها..

تعجّبت كيف يكون نطقه للاسم غير الجميع!

لم يكن يقول «عاليا» بل كان يقف على الألف الأولى فيزيدها ألفًا ثانية، ويأتِ للألف الأخيرة ويزيدها أخرى، وكأنّه يطيل إمساكه لاسمها بين شفتيه لأقصى ما يملك، لذا.. وكلّما حدّثها؛ التفتت سريعًا حتى لا يُضطر لنداء اسمها، فلم يعد سماعه يُريحها، بل يعبث باتزانها وأفكارها!

ثُمّ إذا ما ذهب صوته ووجهه وحديثه ونداءاته من أمامها؛ قامت إلى هاتفها تهبّ إليه وتستمسك به مُستغيثة بصويحباتها، وأحيانًا تكتب بصعوبة بالغة....

« كوني على ثقة أنّكِ ستتأذين يومًا مادمتِ تغامرين بقلبكِ، وهو أغلى ما تملكين، لذا..

عندما تتأذين، ويكسر قلبكِ.. لا تتماسكي!

اصرخي، ابكي، حطّمي، طيري بأقصى طاقتكِ كعصفورةٍ أُطلق سراحها للتوِ؛ فطارت تحت المطر!

كلّما تضربها قطرات الماء؛ تزداد إصرارًا على الفرار من الألم والابتعاد عنه،

فقلبكِ يا حمقاء لن يُشفى إلّا بعدما يغتسل تمامًا!

مع تحيات جروب

#اتضحك_علينا

#الأدمن_عاليا »

❊ ❊ ❊

الرحيل..

الرحيل عن موطن الوجع هو الدواء الذي لا يفكّر به المريض أبدًا، فكم من أماكن حملت لنا الآلام.. ولازلنا نستمسك بأركانها!

وكم من أشخاصٍ سببوا لنا الأوجاع.. ولازلنا نلتصق بظلالهم لا نفارق!

وكم من قوانين مدمّرة تستنزف حياتنا.. ثُمَّ لم نفكّر يومًا في اعتزالها!

وكم... وكم.... وكم...

إذًا.. ببساطة.. لمَ لا نرحل؟! «

#ملحوظة

«لا تنسوا الدخول على رسائل الواتس للأهمية»

مع تحيات صفحة

#ميلاد_الشمس

#الأدمن

أغلقت هاتفها، تنهدت، حدثت نفسها.. «ليت الرحيل بالإمكان»

ولو أنّه كان ممكنًا فهل طريقها كان سينتهي إلى جنّة خضراء أم جهنّم حمراء، تذكّرت ما كان يخبرها زوجها به..

«لستِ إلّا حجرًا ألقاه أحدهم ذات خطيئة في بركةِ ماء؛ فاختلّ سطحها ومن بعدها تعكّر صفو كلّ شيء!»

وصلَت حيث وظيفتهاالجديدة، تلبستها نشوة النشاط، ثُمَّ تفلتت منها حينما عاد إحساسها بوجود من يراقبها، زاد الشعور هذه المرة ليصل لرائحة تجدها حولها، تُحيط بها، تتخلل أنفها، أصابتها قشعريرة باردة، تملّكَت من أوصالها وشهيقها وزفيرها، دمّرت كلّ طاقة كانت تحتفظ بها وتعتمد عليها منذ صباحها، حاولت الهرب من ذلك الإحساس المُفزع بصدرها.. حاولت.. وحاولت، لكن لا فكاك!

كانت بمكانٍ ضعيف الإضاءة لكنّها وما إن غاب الناس من حولها؛ إلّا وقد فقدت النور تمامًا ولم تعد ترَى شيئًا، ولا تعلم.. هل كفّ بصرها أم اشتد الظلام من حولها حتى أخفى الحياة كلّها!

تحسست بيدها موضع النبض منها، قلبها ينتفض، يصرخ، يا الله! عاد رعبها! فلم تزل في رجفتها وصرختها وفزعتها حتى انقضى بعض الوقت وهي وحدها ثُمَّ أتاها صوتٌ يسألها «ما شأنها؟»؛ فأنست به أُنس الغريب بالغريبِ، وما مرّ وقت حتى عاد إليها انتباهها وأدركت أن الصوت لذلك الـ«مُدثِّر» والذي قال موضحًا:

- رأيتكِ وأنتِ تدخلين من بوابة المبنى لكنكِ تأخرت؛ فقلقتُ عليكِ ونزلتُ لأنظرك.

كانت أنفاسها تعود إليها ونبضاتها تحنّ عليها، فابتسمَت مُدعية التجلّد وأنها فقط نسيت الطريق؛ فتاهت.

أوهمها كذلك أنه صدّق كلامها ثُمَّ سبقها عائدًا لغرفةِ «وردة» وقد قرر أن يخبرها حقيقة معرفتهِ بها، علّها حينها تنزع ذلك الخوف من قلبها وربما.. فقط ربما يمكنه مُساعدتها؛ فيُساعد بذلك نفسه التي كادت تهلك من فرط عذاب الضمير.

لكنّه لما وصل حيث «وردة» كانت الأجهزة من حولها تصفّر صفيرًا شديدًا عظيمًا.. دليل الخطر!

***

حاولت الانشغال عنه بهاتفها والاهتمام بما تكتب فيه، لاحظ هو استغراقها التام في ما بين يديها، بدأ حوارًا مع «مصطفى» الذي كان يجلس في زاوية المكان يقرأ الجريدة، سأله بودٍّ:

- وكيف حالك يا عمَّ؟

- بخيرٍ يا ولدي، كيف أنتَ وكيف والداكَ؟

- يسلمان عليكَ.

ساد الصمت و«عاليا» لازال يتملّكها الهاتف تمامًا، همس «عليّ» لها بحرجٍ:

- وددتُ أن آخذ رأيكِ....

التفتت له وهي تتلاشى النظر في وجهه تاركة هاتفها أمامها مُنتبهة له، سلّمها كل التصميمات التي أعجبته؛ فأخذتها بارتباكٍ قائلة:

- «عليّ».. لا داعي لكلّ هذا، اختر أنتَ ما تريد.

أمسك يدها بحنوٍ وأجابها:

- كيف؟ وأنتِ من ستملكين!

بدا على وجهها عدم الفهم؛ فأكمل:

- أنتِ ستملكين المنزل بكلّ ما فيه.. وما أنا إلّا ضيف عندك.

لازال الارتباك يملأ وجهها، ويصرخ في ارتعاشة يدها، وتحكيه زلزلة قدمها، هبّت واقفة هاربة منه ومن نفسها، تسأله:

- ماذا تحب أن تشرب؟

لم تنتظر منه جوابًا، تحرّكت قدمها بالفعلِ في اتجاه المطبخ، تركته خلفها تطير روحه لهفة عليها وشوقًا إليها.

هُنالِك.. أتاها إشعار، أضاء الهاتف، وظهرت عليه الكلمات، لم تكن من الرسائل التي تحتاج أن تفتح الهاتف لتقرأها، بل كانت من الرسائل الظاهرة على سطحه دون جهد أو عناء.. إلّا ثواني قراءتها!

ومع إضاءة الهاتف؛ تحرّكت عينه بتلقائية إليه، لم يطل النظر لكنّه نظر بما يكفي ليلمح....

«العطّار لا زال عندك؟»

لم تزعجه الكلمة لكن أزعجه أن مُرسلها أراد بها التقليل منه، لم تمر عشر ثوان حتى ظهرت رسالة أخرى وأضاء الهاتف..

«تغيبين أنتِ في الرد كثيرًا هذه الأيام!

فمتى تتخلّصين من العطّار لتعودي لنا؟»

أدركَ أنّ الحديث الآن ليس أكثر من مزحة بين صديقتين، فعاد بظهره إلى الخلف مُتجاهلًا ما يظهر على الشاشة.

عادت «عاليا» تحمل عصيرًا، قدمته إلى زوجها، مدت يدها إلى الهاتف، قرأت ما جاء به ثُمَّ أعادته إلى الطاولة وقد تغيّر وجهها واضطربت نظراتها، انتبه «عليّ» لهذا التغيّر فيها، سألها:

- ما بكِ؟

أجابت دون إطالة:

- لا شيء، فقط مُرهقة قليلًا.

يعلم أنّها تُخفي عليه حقيقة اضطرابها، فأعاد سؤاله بصوتٍ أكثر لطفًا:

- حدثيني يا «عاليا».. ماذا أصابكِ فجأة.

نظرت إليه، سماع اسمها منه يُعجزها، يمنعها من الفرارِ ويحرضها عليه كذلك، انتبهت لنفسها هاتفة به وكأنّها تصارع داخل روحها روحًا أخرى:

- أخبرتكَ.. لا شيء.

لمّا سمع منها هذا؛ قام، حينها أدركت خطأها، لكن لم تهتم بتصحيحه، تحرّك تجاه الباب قائلًا دون النظر إليها:

- لمّا تنتهِين من اختيار التصميمات، أرسليها لي إذا سمحتِ.

- حسنًا.

- أستأذنك يا عمِّ..

قام «مصطفى» إليه مُبتسمًا:

- لمَ لا تبقى أكثر يا ولدي؟

بادله «عليّ» الابتسامة بابتسامة:

- مرة أخرى بإذن الله، لكن الآن يجب أن أعود لعملي.

غادر المنزل تاركًا «عاليا» تتخبّط من بعده، عادت إلى غرفتها فوجدت «وِصالًا» تنتظرها هناك، تجلس وقد عقدت ذراعيها أمامها، أول ما رأتها قالت:

- أحسنتِ يا «عاليا».. أحسنتِ، إياكِ أن تسمحي لنفسكِ بالحياة.

جذبَت منها هاتفها وهي تضغط أزراره بسرعة، تفعل شيئًا ما وعيناها تنتقل بين وجه «عاليا» والهاتف، انتهت مما تفعل ثُمَّ وضعت الرسالة الأخيرة أمام أختها سائلة:

- «متى تتخلّصين منه؟!»

لازالت خطتكِ كما هي يا «عاليا»؟!!!

كانت الدهشة من نصيب الأخيرة وهي ترى أختها تُحدثها دون أن تجد ردًا تنتصر به لنفسها، أكملت «وِصال»:

- ماذا فعل ليستحق منكِ كلّ هذا؟ أعطي نفسكِ فرصة وأعطيه هو كذلك.

ضحكت «عاليا» باستهزاءٍ مُجيبة:

- انظروا من تتحدث؟! آهٍ يا أختي، أنتِ بالذات لا أصدق كلمة مما تقولين، بل لا أستوعب أنكِ أنتِ من تقولين .. «أعطيه فرصة» !

- ولِمَ لا تفعلين؟

- لأنّكِ أدرى من أن تدعيني أقع في الفخِ الذي وقعتِ فيه قبلي.

- ماذا تعنين؟

- أعني أنّ الزواج ليس جنّة الله في الأرض وأنتِ تعلمين هذا؛ فتوقفي عن إقناعي به.

غادرت «وِصال» الغرفة غاضبة من أختها، هرعت الأخيرة إلى هاتفها لتبثّ في جروبها لواعج نفسها، لكن.. وبعدما أمسكته ظلّت تنظر إليه طويلًا ثُمَّ عدلت عن رأيها؛ ألقته جانبها ناقمة عليه وعلى نفسها!

أمّا «وِصال» فقد أمسكت هاتفها وتأكّدت أنّ صورة المنشور الذي أخذته من هاتف أختها وأرسلته لنفسها قد وصل هاتفها، فكّرت كثيرًا.. ثُمَّ أحكمت رأيها أن تؤدّب أختها بطريقتها!

***

وقفت «أم الخير» تنادي.. «طماطم حمراء.. طماطم حمراء»

أقبلَت تجاهها امرأة تُمازحها وتلاطفها، تراوغ معها في السعرِ، فراوغتها «أم الخير» كذلك، وكأنّها تلقنها درسًا.. «لا يُلعب على مثلي»، قالت المرأة قبل ذهابها:

- ماكرة أنتِ يا خالة!

فأجابتها «أم الخير» غاضبة:

- بحقِ باعِث هذه الكلمة منكِ.. لستُ أمكرَ من إنسانٍ يضيّع ماله على الأرضِ ثُمّ عند المساكين ادعى أنه أكثر الخلق فقرًا!

ابتعدت المرأة على استحياءٍ وقد أصابتها كلمات الخالة بوعكةٍ إنسانية، بيد أن المعنى كان أكبر من بائعة خضار لكنّها كانت أهلًا لقوله.

مرّ «عليّ»؛ فرأت وجهًا غير الوجه الذي تعرفه، وروحًا تُكابد لتظلّ على قيد الحياة، نادته لكنّه اعتذر منها؛ فقامت إليه مُقبلة عليه، لكنّه حيَّاها برأسه وابتعد بخطواتٍ سريعة إلى دُكّانه، وهناك استقبله جاره، ربَتَ على كتفه بحنوٍّ وقال:

- يا «عليّ» يا ولدي.. ما بِك؟
- لا تنشغل بي يا عمّ، والله إنّي بخير.
- وهل هذا الوجه الذي أرى.. يعرف معنى الخير؟!
- يا عمّ اعذرني لكنّ قلبي لا يطيق أيّ حديث الآن.

- يا بني.. لا تُغلق عليكَ قلبكَ فيملأك الهمّ، تحدّث لعلّي أدلّكَ دليل راحة.

- ماذا أقول يا عمّ.. وأنا مُقتنع بما أنا فيه وأراني أستحقه.

- وما هذا الذي أنتَ فيه؟

- كأنّي يؤدبني الله.

- ماذا تعني يا ولدي؟

- يعلّمني أن لا أجعل قلبي متعلّقًا بسواه.. وها أنا أجني ثمار تعلّقي.

- يا بني لستُ أفهمكَ جيدًا لكن أحسب أنّك تفسر أمرك بالخطأ.. فهل كلّ قلب مُحبّ سيعذبه الله بهذا الحبّ؟

- ليس كلّ قلب، فهناك مُحبّ عاقل وهناك محبّ مجنون.

- وأيهما أنتَ؟

- أنا المجنون.. والآن أبحث عن توبة لعلّ الله يردّ عليّ عقلي.

تجلّت الدهشة على وجه الجار؛ فجذب كرسيًا ووضعه أمام صاحبه وجلس، تحدّث:

- إذًا أنتَ ترى الحبّ.. جنونًا أو عقلًا، أليس كذلك؟

- هو كذلك يا عمّ.

- وما رأيك أن بعضهم يقول.. لا توجد عاطفة من الأساس اسمها حب!

وأنّ ما كان من أشهر القصص عن «قيس».. هو إحساس ما، وُلد مع شخص ما، في وقتٍ ما؛ تناقلته الأخبار والآثار ومن وقتها..

العالم وكلّ من فيه يحاول أن يأتِيَ بمثل هذا الشعور لكن لم يستطع الوصول إليه أحد.

- وما خلاصة كلّ هذا يا عمّ؟

- خلاصة ما يُحاولون قوله عن الحبّ يا ولدي أنّه..

هو قيسٌ واحد.. أحبَّ؛ فصدقَ؛ فجُنَّ؛ فمات!

وعلى الرُغمِ من كلّ ما هو فيه لكنّه ابتسم، فاستمر الرجل مُكملًا:

- أتعلم.. لو سألني أحدهم عن الحبِّ كيف يكون؟

لأجبته أنّه إن أراده الله زرعًا؛ لتجسّد في الزهرة البيضاء وما رآها الناس إلّا عند أحلك ساعات الليل،

وإن كتبه الله جمادًا؛ لجاء في صورة الماء فيجعل الله من الحبّ كلّ شيء حيّ،

وإن صنعه الله طيرًا؛ لوجدناه في أرقّ لون يحمله ظهر فراشة، ثُمّ إنّي لمّا أجد بديع ذلك اللون؛ سأقف حينها صارخًا متعجبًا..

«ما أروع الحبّ الذي يتجلّى على ظهر تلك الفراشة!»

تملّكت الدهشة من «عليّ» تمامًا حتى أسكتته دقيقتين أو يزيد، ولمّا أمسك زمام تعجّبه؛ تكلّم:

- والذي أجرى فيكَ هذا الكلام يا عمّ إنّي ما أحببتُها إلّا في الله، وأقول في الله لأنّي أحبّ ربي أكثر وما انتويتُ بمحبّتي سوءًا، ثُمَّ

إنّي لم أجعل محبتي لها ظلمًا ولا ظلامًا؛ فأتيتُ بابها طالبًا راغبًا، فوالله الذي وضع عزّها ذاك بقلبي لهي أحبّ الخلق إليّ.

- ثُمَّ؟

- ثُمّ إنّي وجدتُها تكرهني.

- وهل تأكدتَ يا ولدي؟

- لم تقلها صراحة لكنّي تفاجأتُ بحديثٍ لها أرسله لي أحدهم، كان كلامها في جروبٍ على الإنترنت تديره..

وقد قالت فيه أنّ نيتها لي «الفراق» لكن بعدما تُرزق بطفلٍ يونسها.

- ألا ناصح لها هناك بذاك المكان الذي تكتب فيه يا ولدي؟!

- بالطبع يا عمِّ؛ فكلّهم في دربِ الخراب.. حُكماء!

هُنالِك صمت الرجل صمتًا أُجبِر عليه، فقد أعيته تلك الجملة الأخيرة، وأعيت صاحبه كذلك؛ فتهافتت من عينه ذرات الألم المالح تترا!

***

وبعد يومينِ.....

جلست أمامه مُتحيّرة من سؤاله الذي أرسله لها على الهاتف، قالت غاضبة:

- ماذا تعني .. «لماذا وافقتِ عليَّ؟»

- هذا سؤالي لكِ، والذي كان يجب أن أسأله لكِ من البداية، لماذا وافقتِ على الزواج منّي؟ ولماذا طلبتِ أن نُسرع بالعقد؟

شعرت أنّه أحيط بها من كلّ جانب ولا فكاك؛ فتهرّبت من سؤاله بسؤال:

- لماذا وافقتَ أنتَ يا «عليّ»؟ أجبني أولًا وسأجيبك.

نظر إليها.. يتلكأ على صفحة وجهها، تلك العين، ذلك الأنف، هذه الحُمرة في خديها، والرعشة في شفتيها، والعرق النابض بقوةٍ في عنقها.... قال بعد دقيقة باسمًا:

- لأنّي أحببتكِ.. وما تمنيتُكِ إلّا زوجة، حينما أراكِ أرى نفسي أُطعمكِ، أُلاعبكِ، أُمازحكِ، أُجالسكِ، أُحدثكِ.....

وقد سمعتُ أبي يقول أنّ كل ما أتمنّاه إن كان في الحلال أخذتُ عليه أجرًا من الله؛ فدُهشتُ!

رفعت «عاليا» عينها إليه في استغراب لكنه استرسل بحماسةٍ:

- تخيلي.. كلّ ما أتمناه معكِ إن فعلتُه أخذتُ عليه أجرًا!

تعلمين.. لم أستوعب الأمر وأنا أفكّر فيه..

جلستُ قبل الفجر يومًا أُحدّث الله عنكِ..

أراكِ أمامي أُطعمكِ بيميني وبمالي الحلال الذي كسبته بجهدي، ثُمَّ أضمّكِ إلى صدري وأسمع شكواكِ وتسمعين شكواي؛ فيمسح الله على قلبي بسماع صوتكِ وأنتِ تهمسين.. «هوِّن عليكَ» وأنا

أهمس لكِ.. «هوِّني عليكِ»

ومع كلّ هذا يعطينا الله أجرًا!

لم تعد تحتمل ما تسمع، لم تعد تطيق حديثه، حاولت الكلام لكنّه عاد مسترسلًا:

- يا «عاليا».. إنّي لّما أيقنتُكِ حُبًّا؛ جعلتُ الله ثالثنا.

صدرت منها شهقة لكنّها كتمتها سريعًا وهو يُضيف:

- لذا لّما قلتِ.. تعال فاعقد عليَّ؛ علمتُ أنَّ الله راضٍ عن دربي الذي عليه أسير؛ حتى أنّه مهّد لي قلبكِ.

ولّما وصل إلى هذا.. سكت عن الكلام تمامًا، ينتظر منها إجابة على سؤاله الأول، علِمَت هي ما يترقب، في صدرها دبيب قويّ يوجعها، لا تدري ما معناه، لا تدري ما مقصده، كلّ ما تعرفه الآن أنّه يجب عليها وضع حدٍّ لذلك الكامن بصدرها وإسكاته تمامًا، قالت دون تفكير:

- لِمَ أردتُ كتب كتابنا؟!.. أتعلم..

ذلك الإحساس الذي يأتي حينما تريد القفز من مكان إلى مكان، لكنّ المكان الآخر بعيد وخطر وغير مألوف؛ فتعود إلى الخلف.. وتعود.. وتعود، ثُمَّ بالنهايةِ تجد نفسكَ بعدتَ بما يكفي؛ فتركض بسرعة، وكلّما ركضتَ زادت سرعتك، حتى إذا وصلت إلى الحافة مباشرة وقبل القفز تمامًا يصيبك الندم؛ لكن لم يعد بإمكانك التوقف،

لأنّ السرعة التي تركض بها الآن تُجبرك على القفز شئتَ أم أبيتَ.. لا طريق غير القفز، وهذا هو السبب الذي جعلني أعرض عليك أمر العقد.. حتى إذا ما أصابني الندم؛ فلن يعود بإمكاني على أيّ حال التوقف أو العودة....

قاطعها هامسًا بفهمٍ:

- فقد صرتِ عالقة معي!

حلّ الصمت ثالثهم لبعضِ الوقتِ حتى قام من مكانه واتجه نحوها، انحنى عليها؛ ففزعت عائدة بظهرها إلى الخلف، لكنّه أمسك رأسها بلطفٍ وقبَّل جبينها هامسًا من جديد:

- كلُّ ما فيكِ يُقبَل ويُقَبَّل يا «عاليا».. إلّا قسوتكِ.

ملأتها الحيرة والارتباك وقد شعرت فجأة أنها هُزِمت في كلّ شيء، ابتعد عنها في خطواتٍ ثابتاتٍ، لم تهتزّ قدمه، لم تبكِ عينه، لم يتوقف قلبه، سار حتى وصل إلى الباب؛ فتحه وغادر!

هُنالِك جاءها إشعار على هاتفها بورود رسالة منه، فتحتها وقد تملّك منها القلق، صرخت وهي ترى أنّ الرسالة ما هي إلّا صورة لمنشورها القديم على الجروب والذي كانت تضع فيه خطتها للزواج ثُمَّ الإنجاب ثُمَّ الطلاق!

للحظة تساءلت.. «أنَّى له أن يتحصّل على مثل هذا؟»

ونزلت على عقلها الإجابة سريعًا.. «وِصال»!!!

دخل «مُدثِّر» على «وِصال» فرآها وقد هدّها البكاء حتى أذهب أنفاسها؛ وذُهلت روحها عنها وهي تمسك بين يديها التقرير الأخير لحالة «وَردة» ، حينها أدركَ أن الحياة تطالب بنصيبها من روح تلك الفتاة، وأنَّ الدنيا الآن تلفظها رويدًا رويدًا حتى تذهب بها إلى الآخرة، وقف بجانب رأسها يمسح عن جبهتها بعض الماء الذي تجمع عليه، يُخفي عبرة تكاد تخترق حجاب ثباته، همس بصوتٍ أقرب للهواءِ.... «هل ستسامحيني؟»

انتبهت «وِصال» إلى اهتزاز كتفه وارتجاف كفّ يده، قامت من مكانها مُقبِلة عليه، فلمَّا استقرّت بالقربِ منه وجدته ينهار باكيًا وهو يتلقف جسد «وَردة» بين يديه يضمّه إليه ويسأل بصوتٍ أقرب للصراخ...

«هل ستسامحيني أبدًا؟»

ملأها الفزع من رؤيته، حاولت الاقتراب أكثر وجسده يرتجف أكثر، خرج صوتها ضعيفًا خائفًا تسأله:

- ما الأمر؟ أخبرني.. ما بكَ؟

بدا أنّه لم يسمعها، فسكتت دقيقة وقبل أن تُعيد سؤالها وجدته يقول بصوتٍ أقرب للهمسِ:

- أنا السبب.

لم تفهم شيئًا ولم تبادر أن تسأله تفسيرًا، فقد بدا أنّ المكان الذي صارت روحه فيه الآن.. هو جحيم الندم، وجدته يُكمل:

- أنا سبب ما هي فيه.. أنا من فعل بتلكَ المسكينة كلّ هذا.
- ما هذا الذي تقول؟ وماذا تقصد؟.. تكلّم!

زفر بقوةٍ وهو يحكي:

- كانت جارتنا منذ زمن، أحبّها أخي من صغرهم، ثُمَّ انتقلَت الفتاة مع أهلها لسكنٍ آخر، مرّت الأعوام حتى وجدتُ أخي في يوم يخبرني عنها أنّه وجدها عن طريق الفيسبوك، وأنّها صارت في أصدقائه، كان سعيدًا جدًا، وكأنّ الحياة دبّت في روحه فجعلته إنسانًا آخر، بدأ يعمل في أثناء دراسته، عمل بكلّ شيء، وكانت هي تُساعده وتشجعه، لم يخبرها أنّه يعمل لأجل أن يجمع المال اللازم ليتقدّم لها، وهي لم تخبره أنّها تعلم كلّ ذلك، لكنها أخبرتني أنا، فقد كانت تعاملني كأخيها الصغير، تحنّ عليّ وتسعد لرؤيتي.. ودائمًا ما كانت تحكي لي قصصًا عن أمي قبل موتها حينما كانوا لا يزالون جيرانًا لنا.

سكت قليلًا يستجمع أنفاسه ويلملم ما تفرّق منها، قال بعد دقائق:

- في يومٍ أُصيب أخي بحادث، وفقد القدرة على السير لمدة أسبوع، كان يعمل بالصباح وبالليل وأحيانًا كان يقضي يومه كلّه بالخارج يقضي توصيلات خاصة، كلّ هذا ليزيد من أجره، فلمّا أُصيب؛ لم تعد الأعمال مُتاحة له.

سألته «وِصال» باهتمام:

- وماذا فعل؟

أجاب «مُدثِّر» بحماسة:

- لم يستسلم، كان مُحبًّا يا «وِصال».. مُحبًّا؛ فكيف يستسلم؟! ظلّ يبحث ويبحث، لم يُوفّق ومع هذا لم يستسلم، كانت «وَردة» هي الجائزة التي ينتظرها في نهاية تعبه وكدّه، لذا لم يكلّ أو يملّ من النزول كلّ يوم والبحث عن عمل، كنتُ أعلم أنّ أمّي رحمها الله تركت ذهبها لأبي وأوصته أن يُساعد به في زواجنا، فذهبتُ إليه وطلبتُ منه ذلك.

- ولماذا لم يفعل هو هذا؟

- لأنّ «راشِد» حاول بالفعل أن يطلب منه المال لكنّ أبي نهره بشدة وحذّره أن يطلب منه هذا الذهب مرّة أخرى، فأيقن أخي أن أبي قد باع ذهب أمّي وأخذ ماله لنفسه، طلبتُ منه أن نسأله ثانية لكنه رفض، وأكد بثقة..

- «أنا سأعمل وسيزوجنيها الله».

- لماذا ذهبتَ أنتَ لأبيكَ إذًا؟

- لأنّ راشِد» كان يقتل نفسه في سبيل الحصول على المال، كانت فترة امتحاناتي بكليّتي، فلم أستطع أن أُساعده أو أُقدّم له عونًا في أي شيء، لهذا قلتُ في نفسي.. أن أُحدث أبي وأُحاول استدرار عطفه؛ فإن كان معه المال؛ أعطانيه، وإن لم يكن.. لم نخسر شيئًا و»راشِد» لا يعلم شيئًا.

- كلام جيد.

- لا ليس جيدًا، فعندما ذهبتُ لأبي وأخبرته عن ذلك الحبِّ الكبير الذي يحمله أخي لـ «وَردة» كذّبني أبي، فأقسمتُ له أن قلبيهما قد عقد بينهما الحب عقدة لا تنفك، وإنّي والله ما وجدتُ رجلًا يحب امرأة كما وجدتُ أخي يحب هذه الـ«وَردة»، فسألني.. «ما دليلك؟»

فأحضرتُ له رسائلها إليه وفتحتُ له حساب أخي ليرى كيف الودّ بينهما وكيف القرب واللطف.

ظهرت الدهشة على وجه «وِصال» وهي تغمغم بسؤال:

- وكيف لكَ أن تصل لكلّ هذا؟

امتلأت عين «مُدثِّر» دمعًا ولسانه يرتجف:

- لم يكن لدينا إلّا جهاز كمبيوتر واحد، وكنتُ أعلم كلمة سرّ حسابه....

قاطعته «وِصال» غاضبة:

- لكنّه ليس حسابك، هذه أسرار، أمانة...

- لم أكن أعععععععلم أو أفكّككككككر إلّا في أن أُقنع أبي، لم أرَ بأسسسسسا.. لم أرَ.... كنتُ أعمى إلّا عن حبّببببي لأخي..

- وماذا حدث؟

مرر «مُدثِّر» يده على كتف «وَردة» وقبض عليه قبضة لم يكن منتبهًا لمدى قوتها، حاول لملمة أنفاسه وهو يقول بغضبٍ مكبوت:

- كانت تضع على صفحتها صورًا لها في عُرس بنت عمها، كانت جميلة جدًا، ربما أجمل من العروس نفسها، رأيتُ أبي وهو ينظر للصور، فزعتُ لما أرى...

حاولتُ غلق الصفحة لكنه نهرني وسألني كيف وجد أخي هذه الفتاة؟ تلعثمتُ وأنا أُخبره أنها جارتنا القديمة، فسكت قليلًا وهو يتذكّر ثُمّ هتف بي.. «ابنة حسن السمّاك»!، أجبتُه أنها هي، فضحكَ بشدة واستمر ضحكه وقتًا طويلًا حتى ظننتُه جُنّ، أغلقتُ الكمبيوتر وأنا ألتفتُ إليه أسأله بقلقٍ.. «هل ستعطي أخي مال الذهب ليتزوج الفتاة؟»

فسألني وكان عقله مشتتًا.. «أيّ فتاة؟»

أجبته بارتياب.. «وردة.. يتزوج وردة»

فعاد لضحكه ثُمَّ ابتسم وقال.. «بالطبع وردة ستتزوج.. لا تقلق»

وهُنا أطرق «مُدثِّر» برأسه طويلًا، ثُمَّ رفعها، فإذا سيل من القهر المالِح يهبط من عينيه، وإذا هو يحاول الكلام فلا يستطيع إليه سبيلا، فمدّ يده إلى يد «وَردة» فأخذها بين كفيه يقبّلها ويسألها بالله أن تسامحه، ثُمّ ارتعش ارتعاشًا شديدًا وظلّ نظره حائرًا مُضطربًا كأنّما يُخيّل إليه منظرٌ مُفزع موجع وصوت «وِصال» تسأله:

- وماذا حدث بعد ذلك؟

لكنّها شعرت بحركة عند باب الغرفة كذا عين «مُدثِّر» كانت عالقة هناك ولسانه يهمس مُتعجبًا.. «راشِد» !!!

قام إليه مُتعجّلًا وكانت «وِصال» ترى في عينيه جمرة من وجع تكاد تصرخ سائلة الرحمة، التفت القادم إليها وسار بخطواتٍ واهناتٍ يدبّ بعصاه أرضًا؛ فتجد أثر ضربته على روح ووجه وأنفاس «مُدثِّر» ظلّ يسير تجاه سرير «وَردة» قائلًا بضعف:

- أخبركِ أنا ماذا حدث؟

لم تدرِ بمَ تردّ وهي ترى الأول والثاني.. أحدهما في فزعٍ والثاني ليس إلّا بقايا روحٍ تمشي على الأرض، تكلّم راشِد» بوهنٍ:

- الذي حدث أنّي لم أستطع الوصول إلى «وَردة» لمدة شهرين، ذهبتُ لبيتهم؛ فلم أجد أحدًا....

توقّف ليلملم شتاته قليلًا ويكبح شهقاتٍ متتابعاتٍ يحاولن السيطرة على أنفاسه، أكمل بعد دقائق:

- حتى أتى اليوم الذي دخل والدي من الباب وهو يجرّ «وَردة» خلفه بفستانٍ أبيض ومن خلفها أمها تزفّها بالزغاريد ووالدها يتبعها بالضحكات، هنالك وقفتُ أمام الجميع تحرقني الدهشة ووالدي يتجه إلى غرفته وبجانبه «وَردة» تصرخ بي تستجدي منّي أن أُنقذها، وأنا لا أدري ما يحدث؟ لم تمرّ دقيقة حتى دخل أبي إلى الغرفة وهي خلفه تُجرّ جرًا.. وأغلق الباب!

وبقيت أمها في الخلفِ تهلل والأبّ يصفّر!

أخفى «مُدثِّر» وجهه بين كفيه وكأنّه يفرّ من نظرات كلّ شئ

حوله، وكان قد وضع «وَردة» بمكانها، فاقترب منها راشِد» ومدّ يده حتى اقترب أن يُلامس شعرها ثُمّ توقّف وابتسم، قبض يده وكأنّه أمسك بين أصابعه أنفاسها وأثر روحها وشيئا من حبّها؛ فضم أصابعه بقوة ثُمّ رفعها وقرّبها من صدره، أدخل يده من بين ثنايا قميصه حيث موضع قلبه، جعل يده تستقرّ هناك دقيقة وقد بدأت أنفاسه تهدأ رويدًا رويدًا، ثُمَّ ترك دموعه تنساب بلا خجلٍ، ولربما سقطت بعض عبراته على وجهها وكان هذا أقصى ما نالته منه وناله هو منها!

حاولت «وِصال» النطق، قول شيء، السؤال عن شيء، فلم تستطع البوح بحرفٍ واحدٍ وهي ترى تمزّق «مُدثِّر» ونظرة الخجل على وجهه وهو يقف أمام أخيه؛ حينها علِمَت أنَّ راشِد «لم يكن يعلم بما فعله «مُدثِّر» أبدًا!

سألت «وِصال» بفضول:

- وكيف صارت بوضعها هذا؟

تمالك «راشِد» أنفاسه ودفع بآخر قوة يحملها جسده إلى شفتيه وهو يهتف بغضب:

- حينما انتبهتُ لما يحدث، وأنّي سُرِقَت؛ اندفعتُ إلى الباب غير عابئ لأحد، أمسكني أبوها من كتفي وجذبتني من شعري أمّها، لكن لم يكن أحدٌ ليزحزحني عن بابها ذلك اليوم فالـ محبوبة

بالداخل.. أسمع صراخها ونداءها؛ ووالله لأموتن دونها.....

اندهشت «وِصـال» لسكوته المُفاجئ لكنّها وجدته يُكمل بصوتٍ قد امتلأ حسرة:

- فجأة فُتِح الباب وعبَرَت هي منه تترنّح وفستانها الأبيض صار أحمرًا وسكين كبير يستقر بصدرها، دفعتُ بوالديها بعيدًا وتلقّفتُها بين يديّ قبل أن تستوي بالأرض، ولم تفعل «وَردة» شيئًا غير أن همسَت باسمي ثُمَّ أغلقت للأبد عيونها، وبالخلف وجدتُ أبي واقفًا يسأل بغضبٍ شديد.. «هل ماتت؟!».

ساد الصمت، هربَت الكلمات، تحسب أن الأركان من عِظمِ الألم تتمزق، والأرض من غياب الرحمة تتشقق، وكلّ ذرّات الهواء من حولهم تحتال رمادًا!

هُنالِك نادى «راشِد» أخاه مُستأذنًا متضرعًا:

- دعني أضمّها.. مرة واحدة فقط، والله لن أمدّ يدي إلى جسدها، والله لن أتجاوز كتفها، والله لن أفعل إلّا ضمّها لعلّ روحي تجد ملاذًا في روحها.. والله....

وضع «مُدثِّر» يده على فمِ أخيه كاتمًا سيل تضرعه، بكى وهو يهتف به:

- لن يمكنكَ يا أخي.. الله يعلم ما في قلبك، الله يعلم، ابتعد يا أخي بالله عليك، ابتعد ولا تعد، ابتعد....

حينها انتفضت «وِصال» على صوت الأجهزة من حول «وَردة» تُشير أن وضع جسدها صار الآن حرجًا جدًا!

***

كان نجم الشمس يتناهض من مطلعهِ قليلًا قليلًا؛ فيرسل أشعته الياقوتية الحمراء على كلّ ما هو حيّ؛ فيُنير ظلام الأرواح جميعًا، وتجلو صفحته ويترقرق حضور الضوء منه إلى أركان الأرض وخباياها، أحسّت «أم الخير» بكلِّ ذاك الدفء من حولها، فأصابتها رعشة خفيفة في قلبها، رجفة نبّهتها؛ فأحيَت فيها شوقًا عظيمًا، رفعت رأسها حيث الأفق، حيث الأمل، حيث ترى قدرة الله تتجلّى في سماء مرفوعة بلا أعمدة، فتلبّستها بارقة البُشرى، تزف إليها فتخترق حجاب روحها، وضعت يدها على صدرها، تشعر بنبضها يكاد يُسمع لكلّ بعيد، ظلّت تمسح على موضع الدبيب منها حتى استكان، تنهدت بعد قليلٍ وهي تهمس.. «أنتَ على كلّ شيء قدير».

مرّ من أمامها «عليّ» ذلك الوجه الذي ما عادت تعرفه ولا تدري كيف تُعيد نفسه إلى نفسه مرة ثانية، نادته ليُقبِل عليها؛ فلمّا فعل قالت له بنبرةِ أمل:

- هل سامحتها يا ولدي؟

نظر إليها باستنكارٍ لم يطل حتى تبدّلت عينه إلى جمرةٍ من غضب، هَمَّ أن يبتعد عنها مُخاصمًا لكن أوقفه صوت خشن جاء من خلفه:

- أين نجد «أبا الخير» ؟

كان جسد «أم الخير»مُختفيًا وراء جسد «عليّ» ، ردّ الأخير السؤال بسؤال:

- ومن يسأل عنه؟

علا الصوت الخشن مرة أخرى:

- لا شأن لكَ.. أين نجد «أبا الخير»؟

نظر «عليّ» إلى «أم الخير» التي امتقع وجهها واضطربَت أنفاسها، تكاد تتخفى في حنايا الأرض التي تجلس عليها، هربَت الدماء من وجهها وارتعشت يدها، علِمَ أنّ في هذا التوقيت يكون «أبو الخير» نائمًا بالدارِ، لكنّه لا يخشى إلّا على المرأة التي تكاد تموت فزعًا أمامه الآن، أعطى ظهره إليها وهو يلتفت إلى مصدر الصوت، وجدهم ثلاثة رجال غلاظ شداد، يتناقلون النظر فيما بينهم، يُشير أحدهم لصاحبه أن يدخل إلى البيت أمامه يفتش فيه، عاد «عليّ» إلى الخلف قليلًا وهو يبحث بعينهِ عن أيّ شخص قد يُساعده في الدِفاع عن «أم الخير» وزوجها لكن لم يجد من يُعين!

طال غياب الرجل داخل البيت، أقبل أحد الرجال الذين بالخارج تجاه «عليّ» الذي ظلّ ثابتًا راسخًا لا يتحرّك، لكنّ الرجل تجاوزه حيث المرأة خلفه، كان أغلب وجهها غير ظاهر؛ مما جعله يمدّ يده إلى حجابها ليزيحه فينظر إليها، لكنّ يد «عليّ» كانت أقرب

إليه منها؛ فدفعها بعيدًا عن وجهها وهو يصيح به:

- هل جُننتَ؟

تجلّت الصدمة على وجه الرجل ثُمّ احتالت دهشة وكأنّه لم يعتد على مثل هذا الردع من أحد، تحرّك الرجل الثالث من الخلف وأقبل حيث صاحبه مما جعلهما يحيطان بـ«عليّ»، لكنّ ذلك الأخير كان يمتلئ غضبًا وقهرًا وألمًا مما جعله لا يُفكّر في أي حل غير الانقضاض عليهما، وعلى الرُغمِ من أنّ المعركة محسومة النتيجة لكنّ هذا لم يمنعه أن يدفع بالرجل الأقرب إليه أرضًا ويرفع قبضته ليضرب الثاني لكنّه تلاشاها، هاهنا ظهرت بالعيون جمرات من حميم.. وقبل أن يلتحم الفريقان هدر صوت الرجل الذي كان يفتش بالدارِ صائحًا.. «لا أحد هنا!»

التفت «عليّ» إلى مصدرِ الصوت، فوجد الرجل يحمل بين يديه عباءة «أبي الخير» التي لم يره يرتدي غيرها، كذا حذاءه ونظارته وعمامته، أمسكهما دقيقة ثُمَّ ألقاهم أرضًا أمام قدم «أم الخير» صائحًا.. «أين زوجكِ؟»

أحنت رأسها إلى الأرضِ أكثر دون أن تُجيبه، فجذبها الرجل الأقرب إليها من حجابها وهو يهدر بها:

- أين زوجكِ يا امرأة؟

جُنَّ «عليّ» من فعلة الرجل؛ فانقضّ عليه غاضبًا هائجًا، لكنّه تلقى ضربة في وجهه جعلته يفقد توازنه ويسقط أرضًا، ظلّ الرجل

ممسكًا بـ «أم الخير» يسألها بكلّ قسوة الدنيا عن مكان زوجها، أمّا أحد الرجلين فقد دخل بقتال عنيف مع «عليّ» الذي لم يكن سهل القتال أبدًا.

زادت حدّة الضربات والصراخ والأسئلة، من بعيد سُمِع صوت سيارة شرطة وهي تمرّ من أمام الطريق؛ فدفع الرجل بجسدِ «أم الخير» أرضًا بقوة وفرّ هو وصاحباه هربًا، لكنّه وقبل أن يذهب هددها هاتفًا:

- هذه المرة سنجده يا «دليلة».. سنجده وسنقتلكِ أمامه ثُمّ نقتله.

وضحكَ ضحكة مُخيفة وهو يعود بظهره إلى الخلف بضع خطواتٍ ثُم تلاشى أثره بين زوايا الطريق هو وصاحبيه!

هبَّ «عليّ» إلى «أم الخير» لا يدري شيئًا ولا يفهم شيئًا، وجدها تنزف الدماء من رأسها لكن هذا لم يفزعه بقدرِ ما صدمته رؤية وجهها، ذلك الجرح في جانبه، حيث كانت تضع دائمًا حجابها، ذلك الجرح الذي كان لا يراه إلّا في وجه «أبي الخير» !

نظر إليها بدهشة، أطال النظر، يربط الأمور ببعضها، ذلك الجرح في وجهها ليس لها بل لزوجها، هذه الملابس الملقاة هناك هي لزوجها لكن أين هو؟ لا تظهر أبدًا وزوجها موجود! ولا يسمح هو بظهورها في وجوده! مازالت الأفكار تسترسل برأسهِ حتى قطعت هي سيل حيرته قائلة بضعفٍ:

- «أبو الخير» ميت يا ولدي.

شهق شهقة مدويّة ثُمَّ هتف بعدما أدرك كلّ شيء..

«لم يكن هناك وجود لأبي الخير أبدًا، كنتِ أنتِ طوال الوقت!»

هزّها من كتفها سائلًا:

- لماذا؟ لماذا فعلتِ كلّ هذا؟ ولمَ لمْ تخبريهم أنّه ميّت؟!!

كانت تتألم بشدة وصوتها يخرج في وهنٍ، لكنّها تحاملت مُجيبة:

- لأنني «دليلة»، تذكر القصة التي كنتُ أحكيها للأطفال؟ هي أنا يا ولدي.. هي أنا.

- وماذا يعني هذا؟!

التقطت أنفاسها بصعوبة قائلة:

- سأخبرك كل شيء....

لم تكد تنهي جملتها حتى سقطت مغشيًا عليها بين يديه!

***

كانت تلمح ذلك الظلّ الذي يتبعها منذ خرجت من دار الرعاية، وكلّما حاولت الالتفات؛ اختفى بسرعة! تلك الانحناءات وصوت الخطوات والرائحة.. كلّ هذا يذكرها به.. بـ«غالِب»، تكاد تشعر بأنفاسهِ من خلفها ويده تُمسكها من كتفها، أدركت الآن أنها تكاد تبلغ حافة الجنون بسبب أوهامها وأفكارها....

- كيف لكِ هذا يا «وِصال»؟!!

فزعت من سؤال أختها أول ما دلفت من الباب، كانت هيأت نفسها لمثلِ هذا الهجوم لكن لم تُرتِّب إجاباتها بعد، ظلّت ترقب عين «عاليا» وقد اشتعل بها الجمر، حوّلت وجهها عنها وهي تنظر بهاتفها مُجيبة لسؤالها:

- فعلتُ ما أملاهُ عليّ ضميري.

ضحكت «عاليا» باستهزاءٍ صائحة:

- ضميركِ.. حقًا! يا «وِصال» كوني شجاعة مرة واحدة بحياتكِ وأخبريني السبب؟

أطرقَت «وصال» دقيقتين أو يزيد، وكأنّها تعتلج بداخلها صراخًا وأنينًا، ثُمَّ رفعَت رأسها ونظرت إلى أختها نظرة عطف ورحمة وقالت:

- ألا يؤلمكِ حبّه لكِ وكرهكِ له؟!

- ومن قال أنّي أكرهه؟!

- وهل يؤذي المُحبُّ مُحبًّا؟!

- ومن قال أنِّي أُحبّه؟

- ألا تكونين شفاء نفسك؟ ألا تسمحي له أن يُشرق بجانبكِ؛ فلربما تُضيئين في وجوده كما لم تفعلي أبدًا.....

قاطعتها «عاليا» هاتفة:

- ولربما يُطفئني بيده كما لم أُعتم أبدًا، لربما أصير نسخة أُخرى منكِ يا وِصـــ...

فزعت من جملتها القاسية ثُمَّ قامت من أمامها تخرج من الغرفة محزونة مُكتئبة تمشي مِشية الذاهل المشدوه الذي لا يرى أمامه، ولا يشعر بما حوله، كان والدهما على كرسيهِ وقد انتبه لصوتِ «عاليا» الغاضب؛ فسأل مُنتبهًا:

- ماذا حدث؟ ماذا بكما؟

لازالت «وِصال» على ترنحها وتفلّت روحها منها، أشارت له بيدها.. «أن لا شيء»، لكنّ «عاليا» هتفت من خلفها:

- أُخبركَ أنا يا حاج «مُصطفى»، ابنتكَ الحانية خربت زيجتي.

بانت الصدمة على وجهه لكن لسانه لم يفق منها حتى أكملت:

- رأت أنّي لا أستحق الحبّ الذي بصدرِ «عليّ» فقررت أن تبعده عنّي.

صرخَت بها «وِصال»:

- ما هذا الذي تقولين؟ توقفي عن ذلك الجنون؟

- لمَ؟ لمَ أتوقف؟ أليست هذه الحقيقة؟ ألستُ بنظركِ لا أستحق منه ذلك الحب؟

- ليس هذا ما قصدتُ.. أخبرتكِ أن تعطيه وتعطي نفسكِ فرصة، لكنكِ مصرّة أن تتزوجيه وأنتِ تنوين فراقه...

هتف والدهما مندهشًا:

- ماذا؟!؟!

- ألم تعلم بعد يا أبي؟ ابنتكَ قررت أن تتزوج لتُنجب فقط، ثُمَّ ستترك «عليّا»، زوجًا جيدًا أو سيئًا.. أيًا كان، هي لا تُريد منه غير طفل.

- أجننتِ يا ابنتي؟ لماذا؟ لماذا هذا التفكير الفاسد؟

هتفت بها «وِصال»:

- أجيبيه يا «عاليا».. أجيبيه وكوني شجاعة مرة واحدة في عمرك.

- سأكون.. فأنا لا أخشى أحدًا، حسنًا يا أبي.. لأني لا أريد زوجًا، لا حاجة لي به، أنا أستطيع القيام بكلّ شئوني بنفسي، حتى رعاية طفل.. أستطيع القيام بهذا، فلمَ أحتمل زوجًا وهمًّا ونكدًا وحياة لا تناسبني؟

- ولماذا وافقتِ عليه إذًا؟

- لأُنجب.

- يا ابنتي ألا تسمعين نفسكِ؟ ألا تشعرين بتلك الأنانية داخلك وهي تكبر وتؤذي من حولكِ؟

تدخلت «وِصال»:

- تزوجي لتُنجبي لا بأس، لكن أن تتزوجي ونيتك هدم حياتكِ بالفعل قبل بدايتها فهذا حرام وظلم في حقِّ الطرف الآخر.

- حرام وظلم! لماذا كلّ هذا؟ أنا فقط أتمنى طفلًا؛ فهل يجب عليّ احتمال زوج لأجل هذا؟ أليس هذا هو الظلم؟!

- ومن قال أنّكِ يجب أن تتحمّلي ما يُسيئك؟ فلو بدا لكِ أن

زوجكِ إنسانٌ سيء.. فما الذي يجبركِ على الاستمرار؟

حتى وجود طفل لن يجبركِ.

التفتت «عاليا» بغضبٍ تجاه أختها سائلة:

- إذًا.. ما الذي أجبركِ أنتِ على الاستمرار؟!

تسمّرت «وِصال» في مكانها، ماتت الكلمات على شفتيها، وعين والدها تنتقل بفزعٍ بين ابنتيه، أكملت «عاليا»:

- إياكِ أن تظنّي أنّي لم أكن أنتبه للكيفية التي تتحدثين بها عنه، أو كيف تكون نظراتكِ في حضوره! وكيف تكون أنفاسكِ! كنتُ على يقينٍ من أنّكِ تكرهين «غالِبًا» حتى النخاع.

التفت «مُصطفى» تجاه ابنته هادرًا بسؤاله:

- ما هذا الذي تقوله أختكِ يا «وِصال»؟

أطبق الصمت على شفتيها؛ فلا هي تملك الرد أو الدفاع، صرخت عيونها باكية، بقوة، بألمٍ.....

قالت بعد وقت:

- لم أستطع تركه.

هتف والدها:

- لماذا؟؟؟؟

- لأنّك كنتَ سعيدًا، سعيد أنّ مسئولية واحدة من بناتك قد زالت عن كتفكَ.

- !!!!!!

- أتحسبني لم أكن أشعر بقدرِ الهمّ الذي تحمله في وجودنا؟ أنتَ لم تكن تخفيه، لم تستطع، فقد كان يظهر في حديثك وحركاتك، حتى نومك.. كنتَ أحيانًا تبوح بذلك الهمّ في أثناء نومك...

تهاوت على كرسيٍّ بجانبها وهمست:

- كلّما نظرتُ بوجهكَ؛ لم أستطع إخبارك، تمنيتُ أن تلحظ أنتَ ما بي، تمنيتُ أن تسألني يومًا.. «كيف حالكِ؟» وأنتَ تقصد حقًا.. «كيف صار حالي»، لكنكَ لم تفعل أبدًا.

تكوّم هو كذلك لكن أرضًا، أقبلت «عاليا» عليه بسرعة، فوجدته يبكي ذلك الخجل الذي يملأ صدره، يُخفي عينه وكأنّ الخزي يُسيطر على أفكاره وجوارحه، لم تتوقف «وِصال» عن الكلام، وكأنها لم تنتبه لشأن والدها:

- لذا تحمّلتُ «غالِبًا».. لأنّي كنتُ أخافه.. أخافه أكثر من الموتِ نفسه، كذلك لم أكن أعرف.. إن أنا تركتُه وصرتُ وحدي؛ فإلى أين سأذهب؟!

أطبق الصمت على الجميع؛ فأتبعت جملتها الأخيرة بجملة هامسة لم يسمعها غيرها:

والآن..أكاد أُقسم أنّ «غالِبًا» قد عاد!

***

يتلفّت يمينًا ويسارًا، ينظر للجميع نظرة شكٍّ، يُحدّث نفسه أنّ الناس تدري أمره وتكشف خبره، وأنّ الجميع يحدّقون به ويطيلون فيه النظر، ثُمَّ يُدركون على صفحةِ وجهه كيف تكون البلاهة في وجوهِ البُلهاء، والغباوة في وجوهِ الأغبياء!

فأخفى وجهه وأنفاسه عن الجميعِ من حولهِ وأغمض عينه عائدًا إلى ذهولهِ واستغراقه، حتى قطع عليه ذلك الجزع صوت ابنه وهو يسأله:

- أين هما؟

التفت تجاه «مُدثِّر» الذي أعاد سؤاله:

- أين والدي «وردة»؟ لماذا لم أرهما من فترة؟

أخفى والده رعشة يده وهو يدخلها في جيبه مصطنعًا اللامبالاة مُجيبًا:

- وما يدريني؟ وما يعنيني؟

- أنتَ معكَ كلّ الدراية.. والآن دعكَ منهما، أخبرني ما هو السرّ؟ وأظنّ أنّي أمهلتكَ وقتًا بما فيه الكفاية.

- حسنًا، لكن تذكّر أنّ لا شيء مجاني.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنّ هناك مُقابلًا، لكن ثِق بي.. السرّ يستحق.

- لن أُعطيكَ شيئًا قبل أن تتكلّم.

- على كلّ حال أنا لا أريد غير مُفتاح الشقة، لي أمانة هناك وأريد استردادها.

- اتفقنا، والآن تحدّث.

همّ أبوه بالحديث لكن تملّكه الفزع قليلًا، قال بعد دقيقة أو يزيد وهو يرقب وجه ابنه:

- أمّكَ كانت تعلم ضُعفي تجاه المال، لذا أوصَت المُحامي أن يُسلمكم أنتم نصيبكم عند زواجكم، احتجتُ للمالِ بعد كثير من الصفقاتِ الخاسرة، حينها أيقنتُ أنّ ورثكم يلزمني وإلا سأتعرض للسجن.

- ولماذا لم تُخبرنا كلّ هذا؟

- لأنّي حاولتُ بالفعلِ إخبار «راشِد» لكنّه قال أنّي ضيعتُ مالي ولن يسمح لي بأخذ نصيبه وإضاعته كذلك.

ظهر الاهتمام جليًا على وجه «مُدثِّر» ووالده يُكمل:

- ضاقت بي الدنيا، جئتَ أنتَ وأخبرتني خبر «راشِد» و«وردة»؛ فعلمتُ أنّ هذه فرصتي الوحيدة لأتحصّل على ذلك الورث من أخيكَ.

تصاعدت أنفاس «مُدثِّر» وعقله يعمل أسرع من حكي والده:

- فذهبتُ لأهلِ «وردة» وعرضتُ عليهم أن نوهم «راشِد» أنّي سأتزوج «وردة» وأن أباها سيُجبرها على ذلك، حينها سيقبل أن يُقدّم أيّ شيء في مقابل أن لا أعقد عليها....

هبّ «مُدثِّر» من مكانه صارخًا:

- ماذا؟؟؟ما هذا الذي تقول؟

ممَ صُنعت قلوبكم؟؟؟؟

- اهدأ.. اهدأ.

- كيف أهدأ وأنا أسمع منكَ هذا الجنون؟

- أنا لم أتزوجها.. لم أفعل.

- ووالدها.. كيف يرضى بهذا؟ وأمها.. كيف تسمح بظلمها هكذا؟

عاد والده إلى كُرسيه وهو يشير لولده بالعودة كذلك ثُمَّ قال:

- الحقيقة أنّ «وردة» ليست ابنتهم، بل قريبة لهم، مات أهلها في حريق؛ فتكفّلوا بها وكتبوها باسمهم.

هُنالِك لم يستطع «مُدثِّر» أن يضيف حرفًا، تمزّقت قوته وصموده وثباته.. كلّ ما فيه تبعثر ووالده يضيف:

- لذا رحبا بي عندما عرضتُ عليهما جزءًا من المال في مُقابل أن يقوما معي بهذه التمثيلية، وظللنا شهرين نُرتّب ونعد العدة لتنفيذ الخطة كما رأيتَ.

- وماذا عن طعنها؟

- لم أفعل.. والله لم أفعل، كانت خطتي أن أحبسها بالغرفة وأخرج لمساومة «راشد» وهو لازال يترنّح من صدمة زواجي منها؛ فيوافق على أيّ شرط أقوله، لكنني وبمجرّد أن دخلتُ بها إلى الغرفة؛ أخرجت هي سكينًا من بطانة فستانها وهتفت بي.. «الموتُ عندي أهون من أن أحيا معك»، ثُمَّ طعنَت نفسها، أمّا أنا فلم أقربها.

- ولِمَ لم يُخبرنا أحد أنكَ لم تتزوجها؟

- لأنّي خشيتُ اتهامي بمحاولة قتلها؛ فهربتُ، أما قريباها.. فخشيا أن يُحاسبهما أحد على تلك التمثيلية التي فعلناها.

حلّ الصمتُ ضيفًا ثالثًا، حتى أحيا «مُدثِّر» الكلام ثانية وهو يضع يده بجيبهِ؛ فيُخرج منه خبيئة، يضمّ أصابعه عليها بقوة يبثّ فيها كل سخطه وغيظه ثُمَّ يدبّ بها على الطاولة أمامه بعظيم كرهٍ صائحًا:

- ها هو المُفتاح، أمامك ساعة واحدة فقط وبعدها تُغادر المنزل، واحذر أن أراكَ مرة أخرى.

تلقّف والده المُفتاح بين يديه بلهفةٍ ثُمَّ هبّ من مكانهِ مبتعدًا دون كلام أو استفهام!

بقى «مُدثِّر» بمكانه مُتعجبًا من أبيه، ناقمًا عليه وساخطًا على أبوي «وردة»، لكن نشوة خبر عدم الزواج أنسته كلّ الهموم.

حاول الاتصال بأخيهِ يزفّ إليه الخبر لكن هاتفه كان مُغلقًا، فأخّر الاتصال قليلًا، والآن تبقى عليه همّ «وِصال».. كيف يخبرها أنّه يعلم كلّ شيء؟!

ويُطمئنها بما يكفي لتسمح له بمساعدتها!

أخرج من جيب بنطاله بحذرٍ الرسالة الأخيرة الممزقة، تهتك طرفها وتجعد وجهها وتمزق بعضها.. لكن بقيت راسخة أمام عوامل التدمير كلها؛ فلم تتبدد الكلمات أو تتبعثر الحروف هاهنا وهاهنا!

لا يدري لمَ قرر القراءة!

ربما ليقترب منها أكثر، ليفهمها أكثر، ليُحسن الحديث والفعل معها أكثر!!!

لا يعلم غير أن الورقة قد توضّح له خبيئة شعورها!

وأن صمته دون كلام أو قراءة لهو قتل لها!

لذا سيقرأ.. ويقرأ.. ويقرأ

حتى تنقضي الساعة؛ فيعود للشقة يطمئن، هنالِك أمسك الورقة الممزقة، رصّها أمامه، رتبها، ثُمَّ بدأ....

أوراقي..

لمَ لم يصنعوك تصلحين للكلام

للحكي..

لتردّي عليَّ..

لتقولي لي.. أخطأتِ يا وِصال

تستحقين ما يحدث لكِ يا وِصال

أنتِ الظلم والظلام والليل والشيطان!

حتى إذا ما فعلتِ..

سألتكِ: لمَ أيتها الأوراق؟

فلعلّي حينها أجد لديك إجابة وسببًا

أريد سماع سبب..

علامَ أُعاقب أيتها الأوراق؟
علامَ أُهان؟
علامَ....؟
وعلامَ....؟
وعلامَ.....؟
ألأنّي امرأة؟!
إذًا حاسبي الله الذي خلقني.
ألأني أحمل قلبًا يحب ويتألم ويُخطئ؟
إذًا حاسبي الله الذي وهبني.
أيتها الأوراااااق
أجيبيني..
إلى متى سأحيا في ذاك الهوان؟
أخبريني..
لماذا؟؟؟
اليوم قال..
أنّ الله ألهمه حقيقتي..
وأخبره سرّ خِلقتي..
وأنّه عرف أخيرًا كيف يحيا بصحبتي!
فزعتُ لذلك التنوير الذي يتوهمه..

وعلمتُ أن الله لم يلهمه أبدًا رشده.
لكنّه فاجأني بما لم أتوقعه..
قال:
يا وِصال.. قد ساءني منكِ خُلُقكِ
وأعماكِ حُلمي عليكِ
لذا..
من اليوم لن أُعاقبك..
بل ستُعاقبي أنتِ نفسكِ.
حينها علمتُ أنّه جُنّ أيتها الأوراق.
أكمل قراره..
لن تنالي شيئًا من اليوم إلا إذا استحققتهِ
لم أفهمه!
ولم أنتظر كثيرًا أيتها الأوراق..
فقد قام.. وأفاض في الكلام..
من اليوم سيتغيّر النظام..
لن ترتدي إلا ما يليق بفعلك؛
والآن ضعي عنك هذه الملابس جميعًا يا وِصال
فنزعتُ ونزعتُ ثُمّ سمح لي بالقليل
قال..

أحضري الطعام..
فوضعتُه أمامه دون ابتسام
فقال اخلعي شيئًا..
وهذا هو جزاء العصيان!
أكل قليلًا.. أعجبه الطعام؛
فقال البسي شيئًا..
وهذا هو جزاء الإحسان!
وها أنا أيتها الأوراق..
يُكافئني بالسترِ..
ويعاقبني بالعري والخذلان!
هل هذا زوج.. رجل.. إنسان؟!
أم أنا حيوان؟
أخبريني ..
اصدقيني..
هل ذنبي أنّي امرأة؟
وهل على هذا يُحاكم إنسان؟!

انتهت الورقة؛ وانتهت الروح بداخله، هاهنا لم يستطع كبح الصراخ، فقام وهاج واضطرب اضطراب المُتهم بالخذلان!

***

في طريقها إلى عملها.. تجد رائحته في أنفها، صدمها أحدهم في كتفها أثناء سيره لكنّ الصدمة كانت مألوفة لها، تعرفها ويحفظها جسدها، كلّ نبضة منها تُقسم أنه عاد، كلّ ثورة من أنفاسها تستغيث من رجعةٍ لا حياة فيها، ومن زيجةٍ لا سكن فيها!

هربت حيث ملاذها الإلكتروني...

« ألم تتساءل يومًا.. كيف تثبت حبّك؟

فإنك إن أحببت؛ خبَّرت.

فهل تُخاطر بالذهاب وإثبات حبّك؟

إذًا.. ماذا لو أنّ هذا الإنسان الذي يستحق اعترافك لا يُمكن الوصول إليه؟

ذلك الذي تحمل له حبّك العظيم «ميت».. فهل ستذهب خلفه لتُثبت محبّتك؟ «

#ملحوظة

«لا تنسوا الدخول على رسائل الواتس للأهمية»

#نقاش

#ميلاد_الشمس

#الأدمن

ولأول مرة منذ فترة طويلة لم يجرؤ أحد على النقاش.. حتى «وِصال» التي كانت تتلهف دائمًا لحضورِ تلك اللقاءات!

الجميع يُتابع لكن بصمت، فهذا المنشور بكلّ ما جاء فيه سبب ارتباكًا!

أمّا هي فقد تبعثرت نفسها مع سؤالها..

من أحقّ الناس بمحبتها؟

ومن بحقٍّ يحبّها؟

لم يكن «غالب» حبيبها، ولم تكن هي محبوبته، كانت جزءًا من أملاكه، وحقوقه في هذه الحياة، بالنسبة إليه هي أكثر قيمة من المال وأقل أهمية من الماء!

بعدها بساعةٍ نزل منشور آخر...

« لمَ لا يمكننا الاعتراف بهشاشتنا..

وأننا لسنا على ما نرام!؟

وأننا بكلّ ما أوتينا من قوة..

سقطنا في جبِّ ضعفنا!

#ملحوظة

«سنُكمل النِقاش على الواتس»

#نقاش

#ميلاد_الشمس

#الأدمن

أحجم الجميع عن الرد إلّا واحدة انبرت بتعليقٍ..

«الهشاشة تُصيب أرواحنا في مقتل، فلو أنّا اعترفنا بهشاشتنا..

لكُنّا كمن يعترف بقتل روحه، فهل هذا ما تريدنا أن نعترف به؟!»

كان التعليق موافقًا لما في نفوسِ الأعضاء؛ فانتظر الجميع ما سيُسفِر عنه النقاش، لكنّه لم يكتمل، توقف على هذا القدر، انتهى غريبًا كما بدأ غريبًا!

بيد أنّ ما علق بالنفوس كان أشد أثرًا!

هذه المرة استوقفتها الملحوظة وأثارت بداخلها الكثير من الفضول، قررت أن تُحمِّل البرنامج، ثُمَّ لمّا فعلت؛ راسلت أحد الأعضاء ليضيفها، كان الترحيب بها صاخبًا مُدويًا وما قرأته كان أكثر صخبًا.

***

أمام المرآة كان وقوفها، تتذكر جملته.. «كلّ ما فيك يُقبَل ويُقبَّل»!

أنَّى له أن يقبل منها كلّ هذا؟!

لأول مرة تنتبه أنّه ما أراد منها شيئًا غير أن ترد ودّه بالودِّ، وقربه بالقربِ، ولطفه باللطفِ، وعلى الرُغم من أنّها لم تُكافئ أيّ خُلقٍ طيب فيه؛ فلا زال هو يبذل!

توقّفت عن حديث نفسها فجأة وقد برقت في رأسها بارقة من حيرة..

هل كان يجب عليها أن تُعطيه فرصة؟!!!

ذكّرت نفسها بكلماتها على الجروب، وكلام صاحباتها كذلك، لكن عادت الحيرة تُظهر برأسها ذلك التساؤل مرة ثانية..

«هل كان يجب عليها إعطاءه فرصة؟!

غلبها التفكير وأرهقها حتى فرّت منها الروح والأنفاس؛ فقامت إلى الجروب تفتحه وتكتب....

« ماذا لو كان كلّ ما حولنا سرابًا؟!

الإفطار الذي أكلناه،

والماء الذي شربناه، والحديث الذي أجريناه،

والنصح الذي بذلناه!!!

ماذا لو كان اليوم خدعة؟

والأمس حلمًا!

وإجازة الأسبوع وهمًا!

ومرتّب الشهر هباءً !

وصراخ الجيران تمثيلًا!

وزلزال الروح إشاعة!

وانكسار القلوب كذبة!

وصناعة الحبّ مُسكِرة!

ماذا لو كان كلّ ما نراه ونسمعه ونتعلّمه ونُعلّمه.. ليس صحيحًا؟

فمن نحن لنُمسكَ بالواقع؛ نُمزقه ونبنيه كما نرى فقط.. من نحن؟

وماذا لو كنّا نحن أنفسنا.. خدعة؟!

أعتذر منكم جميعًا.»

#الأدمن_عاليا_سابقًا

انهالت التعليقات من الجميع...

«ماذا يعني هذا؟ ما المقصود؟ لم أفهم!»

«كيف هذا؟ كيف تقولون هذا؟»

«بسببكم تم إنقاذ الكثير منّا قبل الوقوع في فخ الزواج»

«هل تم تهكير الصفحة؟»

«أظنّ أحدهم سرق جروبنا الغالي!»

«ماذا سنفعل؟»

لم ترد على أحدٍ، لم تلتفت لأيّ تعليق، فقط ذهبت إلى الإعدادات وسجّلت خروجًا من الجروب للأبد!

***

حملها إلى أقرب مشفى، لم يقبلوا دخولها إلّا بعدما قدّم بطاقته، أفاقت هي بعد ساعة لتبحث عن «عليّ» أول ما بحثت، لم يعد يحتمل انتظارًا أكثر من هذا، سألها بحدة:

- لماذا تفعلين بنفسكِ كلّ هذا؟ لماذا؟ لماذا؟

أخفت وجهها بيديها، لملمت الكثير من أنفاسها وبعثرت الكثير كذلك، أجابت بعد دقائق:

- لأن «أبا الخير» لا يُمكن أن يموت.

- لكنّه بالفعل ميّت!

بكت قليلًا وهي تُكمل:

- لا، لم يمُت ولن يموتَ أبدًا، لأنني سأبقيهِ حيًا، إلى الأبدِ.
- هل تمزحين يا خالة؟! ما هذا الذي تفعلين؟
- يا ولدي.. إن علموا بالبلدِ أنّه مات؛ لزوجوني أخاهُ.
- إذًا ارفضي.
- لن يُمكن، عندنا المرأة كالميراث، تنتقل لمن كان عليه الدور!
- إذًا تهربين لأجلِ هذا!

نظرت إليهِ بعجزٍ، لا تدري كيف تصف له ذلك الذي كان بينها وبين زوجها، كيف تصوغ له ذلك الإيمان الذي نزل بقلبيهما.

جاء في قلب أحدهم يومًا تعليل ذلك الإيمان؛ فقال..

ما المرء إلا عقيدة.. مخبوءة في صدره ومنقوشة على جوارحه ومُرسلة في أفعاله، وتعطّر كل حركاته، فإذا تقابل البشر؛ التقت العقائد داخل النفوس، ويا لِرزق من وجد العقيدة التي تؤنسه، وتكمّله، وتكون له عين الرضا؛ فحينها.. وفقط حينها ترفع راية الإيمان!

ثمّ إن الإيمان محلّه القلب ودليله الجوارح؛ فتجد الروح والعين والشفتين و....

كلّ جارحة تستصرخ جهرًا بها، إعلانًا لها، حكيًا عنها..

وتأتي المحن فـرادى أو جماعات، فلا تجرؤ على الحزن أو الاستسلام أو التمزق..

فكيف تفعل وهناك قلب يؤمن بك وبقوتك وبثباتك، قلب اتخذكَ بعد الله إيمانًا!

استحققت هذا أم لم تستحق، على أيّ حالٍ كان قلبك..

فالمرء منّا لا يُهزم بنفسه، بل يُهزم بأشيائه التي يحبها.

أجابته بعد صمتٍ طويل:

- ليس هذا فقط، أهرب لأبقي «أبا الخير» حيًا في أذهان الجميع حتى يظل الثأر متوقفًا عندنا، لا ينتقل لأحدٍ آخر.

- لم أفهمكِ يا خالة!

- يا ولدي.. كم زوجة ستترمل وكم طفل سيتيتم من هذا الجنون الذي يحدث؟! فكرتُ أن أُبقي زوجي حيًا حتى يظلوا يبحثون عنه للأبدِ...

قاطعها «عليّ» مكملًا بعدما فهمها:

- فلا هم يجدونه ولا أنتِ مُجبرة على الزواج بغيره.

- ما دمتُ حيّة؛ فهم يعتقدون أنّه حيّ.

هنالك صدرت منها آهة ألم قوية، وصرخة عالية مدوية جعلَت الممرضة تُسرع إليها فزعة، دقائق حتى خرجت مُهرولة تطلب استدعاء طبيب الجراحة فورًا.

اقترب «عليّ» من «أم الخير» مرة أخيرة؛ فأمسكت يده بقوةٍ وتحمّلَت عليه لتقوم، منعها من الحركة لكنها قبّلت يده متوسلة له

والعبرات بعينها تصرخ أن يأخذها لمشفى آخر فورًا، أخذها هربًا، بسرعة كان يغادر بها دون حتى أن يأخذ بطاقته، يركض معها في الطرقات دون أن يدري سبب إصرارها، يتلفّت باضطرابٍ حتى يجد وسيلة مواصلات تحملها لأقرب مشفى، لكنّها هتفت رافضة، وطلبت مشفى أبعد منها، ملأته الحيرة.. كلّ الحيرة، أنفاسها تتقطع، لها سعال يشبه الرعد في فزعته، يدها باردة، عيونها تبكي.. ألمًا، خوفًا، قهرًا.. لا يدري!

جذبت من جيبه قلمًا أزرقَ كان بارزًا منه، أمسكته وكشفت عن ذراعها الأيمن، كتبت بخط كبير.. «مسلمة»

مالت عليهِ هامسة:

- حتى إذا ما متُّ؛ علموا أين يدفنوني وأنا بدون بطاقة شخصية.

انقبض قلبه، فقط هذا ما تحرص عليه.. والآن!

نظر لعينها فوجدها تعلم ما يعلم، نظر ليدها ففهم أنّها على موعدٍ آخر مع القدر!

وصلا للمشفى، نزلت تترنح، تخذلها قدمها، حملها فنزلت من على يده مُعترضة، تبدد أنفاسها صار أكثر سرعة، جفاف شفتيها بات ملفتًا، زرقة وجهها...

استندت على حائطٍ وهمست بأعلى صوتٍ عندها:

- اذهب.. الآن، لا تقلق، سيجدني الأطباء، اذهب يا ولدي، فإن أنا متُّ؛ لم يعرفوا من أنا، ولم يدرِ أحدٌ بالبلد عن أمري شيئًا، وأن أنا حييتُ؛ فقدر الله وما شاء فعل، ولعلّي ألقى حبيبي يومًا آخر.

تعثّرت الكلمات على شفتيه، ارتجفت يده وهو يتلقفها كي لا تقع، قال باكيًا:

- لكن يا خالة...

ربتت على كتفه بحنو قاطعة لحديثه:

- عسى أن يكون لقانا في الآخرة..

سقطت أرضًا ببطءٍ، سعلت من جديد، خرجت بعض الدماء من فمها، فزع لما يرى لكن قلبه أيقن أن الوقت انتهى.

***

ذاهب إلى المشفى يحمل همّ «وِصال» وفرحة «راشِد»؛ تناول الهاتف بين يديه، ترتجف أصابعه، يضغط الأرقام.. يُخطئ فيها ثُمَّ يُعيد الاتصال ثانية، جاءته مكالمة من «وِصال»؛ فرفضها، أعادت الاتصال لكنّه ظلّ على رفضهِ للرد.. مشغولٌ هو بالأمر الأكثر إلحاحًا الآن، أخيرًا استطاع الوصول لرقمِ أخيهِ، وبمجرّدِ أن سمع صوت «راشِد» صرخ به:

- تعال.. تعال يا أخي بسرعة.

دخل الغرفة يبحث عن «وِصال» التي كانت تلح في الاتصال

حيثما توقع أن تكون؛ فلم يجدها، ولا أيّ أثرٍ من آثارها.. خرج يسأل عنها مسئولة الدار والتي أخبرته أنّها غادرت غرفة «وَردة» نهائيًا وبلغتهم أنّها لن تعود ثانية!

مادت الأرض من تحت قدمه، وتزلزلت أنفاسه، سأل:

- منذ مممممـ تتتتتتى ؟؟

- هذا الصباح.

حاول الاتصال بها لكن هاتفها صار مغلقًا؛ هنا لك عادت إليه رجفة روحه وفزعة قلبه؛ فأيقن أن الحروف لن تعود لسابق عهدها، منع الوهن أن يبدو جليًا على وجهه، أشار للمسئولة ملوحًا يستأذنها، وعاد آفلًا إلى غرفة «وَردة»، لا يدري هل يسعد بخبر عدم زواج والده منها، أم يشقى من خبر ذهاب «وِصال» للأبد؟!

اتجه حيث استقرّ جسدها، وكل الأسلاك موصلة بها، رفع عينه حيث شعرها، أخرج من دولابها حجابها، اتجه إليها ثُمّ وضعه على رأسها ولفّ به شعرها وعنقها، غطى جسدها جيدًا، أحضر كرسيًا جانب السرير وجلس عليه، نظر عبر النافذة إلى الأفق؛ فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها، ورأى جيش الليل يطارد فلول جيش النهار فيبددها بين يديه تبديدًا. فتهافت على نفسه هامسًا:

- وهكذا.. لا يدوم للأبدِ نور ولا عتمة!

دخل عليه «راشِد» دون أن ينتبه، التفت «مُدثِّر» إلى أخيه؛ فزع

من رؤيته، قد صار الأخ بقايا حياة في جسد!

اصفرّ وجهه وضعفت قدمه، تخلخلت يده وهي تُمسك بالعصا تحتمي بها من جاذبية السقوط، قام الصغير للكبير، الحزين للمحزون، نظر إلى أخيه؛ فأطبق جفنيه على دمعةٍ تنحدرُ من بينهما رُغمًا عنه، احتال جسده عظمًا مجلدًا، وهيكلًا قائمًا لا يُساوي ثمن النظر إليه!

ضمّ أحدهما الآخر، كان عناقًا عظيمًا، حتى قطعه «مُدثِّر» ممسكًا بكتفِ أخيه يهزّه بقوة هاتفًا:

- لا أدري ماذا أقول لكَ يا أخي.. أعتذر منكَ أم أُهنئكَ أم أُعزّيك؟

حمل وجه «راشِد» كلّ الحيرة؛ فتكلّم «مُدثِّر» موضحًا:

- أمّا الأولى؛ فاعتذاري تعلم سببه وإلامَ انتهى جُرمي، وإنّي لأعلم أنّكَ وإن غفرت لي؛ فالله لن يغفر حتى يرد ظلمي عن «وَردة».

مسح «راشِد» على رأسِ أخيه مُبتسمًا له بهدوءٍ؛ فكأنما يمسح على قلبه كذلك، لا طاقة به لعتابٍ أو حساب، منع «مُدثِّر» عبرة كادت تفرض وجودها بينهما وقال:

- وأمّا الثاني.. فيا أخي اغفر لأبيكَ ذنبه.

اختلّت قدم «راشِد» عند سماعه ذكر والده، انقلبت عينه نارًا، هتف بغير قوة وهو ينقل بصره بين «وَردة» و«مُدثِّر»:

- أغفر! والذي خلقني لا أغفر له أبدًا، لقد قتلني وقتلها...

- اسمعني يا أخي...

علا صوت «راشِد» يصدح بكلماته:

- بل اسمعني أنتَ، لقد حرّمها عليّ! حرّمها عليَّ للأبدِ! حرمني من «وَردة» للأبد، دنيا وآخرة، فكيف أغفر له؟!

- هذا ما أردتُ قوله لكَ يا أخي.. أبي لم يتزوج «وَردة».

ظلّ وجه «راشِد» ثابتًا لا يتغيّر، جفّت الكلمات على شفتيه، وتهاوى جسده على أقربِ كرسي إليه، فكأنّما احتالت الدنيا من حوله سوادًا قاتمًا، يأتيه صوت «مُدثِّر» كبقعة ضوء صغيرة من الزاوية.. وها هي تتسع شيئًا فشيئًا!

خرج صوته متحشرجًا متقطّعًا يسأل:

- ماذا تعني؟

- أعني ما سمعتَ.. لم يكن بنيتهِ أبدًا أن يعقد عليها، فقط كان الهدف أن يبتزّك بها..

لم ينتظر «راشِد» من أخيه أن يُكمل كلامه، فقد قام من مكانه واتجه إليها، حاول «مُدثِّر» أن يكمل الحكي لكنّه أوقفه بحركةٍ من يده قائلًا:

- لا أهتم بأي شئ من هذا يا أخي، لا يهمني غير أن أعلم شيئًا واحدًا.. «وَردة» مُحرّمة عليّ؟

رفع «مُدثِّر» نظره إلى أخيه؛ فوجد الحياة تدبّ في وجهه ويده

وقدمه، أنفاسه تعود، يكاد يُقسم أنَّ حتى دبيب قلبه يصدح صوته خارجه، أجاب باكيًا:

- ليست مُحرّمة عليكَ يا أخي.. ولم تكن يومًا.

أتت شهقة قوية من فم «راشِد» كادت تخترق حجاب قلب أخيه، ألقى «راشِد» عصاه أرضًا وخرّ لله شكرًا...

علا صوته..

هي زوجتي، هي زوجتي يارب،

هم أخذوها منّي وأنتَ أعدتها إليّ يا الله!

أنتّ كريم يا الله!

أنتّ رحيم يا الله!

وظلّ نحيبه يعلو ويخفت حتى مرّت دقائق؛ فقام من سجدته، توقّع «مُدثِّر» أنّه سيذهب أول ما يذهب إليها لكنّه خرج كجسدٍ عادت إليه الحياة للتو، خرج مسرعًا وأخوه خلفه يسأله الصبر، لكن «راشِدًا» لم تكن قدمه التي تحرّكه.. بل قلبه، قلبه الذي نفخ الله فيه الروح الآن بعد موتٍ طويل!

- هي تموت يا أخي.

وكانت تلك هي الجُملة التي أسكتت قلب «راشِد» وكبّلته؛ فتوقف مكانه فزعًا حتى كاد يفقد توازنه، اقترب منه «مُدثِّر» ووضع يده على كتفه ناظرًا إلى عينه هامسًا بحسرةٍ:

- هي تموت.. معظم أعضائها توقفت بالفعل، اعذرني لكن كان يجب أن أذكركَ بهذا حتى لا تبني أحلامك على شاطئ من الرملِ.

- وإن ماتت كلّ أعضائها.. والله يا أخي لا أُفارقها أبدًا، يكفيني أن أضمّها ضمّة واحدة.. حتى وإن كان موتي في تلكَ الضمّة.

ثُمَّ خرجت آهة ألم من صدره مكتومة، لكنّه ابتسم وكأن لم يمسسه ضرّ، أمسك يد أخيه إمساكة الطفل الصغير وجذبه عائدًا إلى غرفتها، وعلى بابها وقف صارخًا.. هاتفًا.. مُناديًا....

«الزواج إشهار..

الزواج إخبار...

الزواج إعلام....

اشهدوا أن اليوم تزوّج «راشِد» من «وَردة»

وأنَّ «وَردة» صارت زوجة «راشِد»

زوجة الدنيا والآخرة»

خرج الزوّار من غرفهم، وقام المرضى من أسرّتهم، وتجمّع المسؤولون عند باب «وَردة» ، الكلّ يسأل .. «ما بال ذلك المجنون؟»

أمّا المجنون؛ فقد دخل الغرفة واتجه إليها، يراها الآن على سريرها في فستانها الأبيض، وحجابها الأبيض،

لم يعد وجهها مريضًا شاحبًا،

لم تعد يدها باردة صفراء،

لم تعد قدمها يابسة،

هي الآن في أجمل صورة قد تظهر بها عروس!

صعد بجانبها على السرير، ولا زال الجمع يقف أمام الباب يتقدمهم «مُدثِّر»، انحنى «راشِد» على جبهتها وقبّلها ثُمّ أمسكَ رأسها ووضعها على صدره،

لفّ يده حول كتفها يأويها إليه..

فضمّها الضمّة..

وشمّها الشمّة..

وهمس في أُذنها..

«سلام الله عليكِ يا زوجتي»

هُنالكَ علا صوت الأجهزة من حوله، اضطرب الجميع، تغيّر الوضع، كل الوجوه الباسمة احتالت بكاءً، حاول الجميع فعل شيء.. أيّ شيء ، لكنّ قدر الله كان نافذًا إليها غير متأخرٍ أو متزحزحٍ..

صرخت امرأة.. ثُمّ أُخرى.. لكنّ صرخة «مُدثِّر» كانت أعلى منهم جميعًا حينما وجد «راشِد» لم يتحرّك من مكانه؛ فلمّا اقترب منه.. أدركَ أن الحبيب لم يُفارق محبوبته، لم يُفارقها أبدًا!.

***

جالسٌ هو يترنّح، لازال لا يُصدّق ما رأى وسمع، تسيح نفسه التي بين جنبيه وتتخبّط من أثر ذاك الذي علِمَ، اقتربت «عاليا» منه وألقت عليه السلام، لم ينتبه لحضورها ولا وقوفها ولا حتى سلامها.. وهو الذي كان ينظر حيث موضع سيرها قبل أن تسير فيه!

أطال النظر إليها، كادت أن تغلب عينه عبرة تبوح بسرِّ الوجع، لكنّه كتمها وأخفاها، أمّا هي فقد علِمَت أنها تخسره الآن وللأبدِ، هناك حيث تلك المعركة القائمة في الحد الفاصل بين حبّه وزهده فيها، وقفت أمامه وسألته.. «لمَ لم تتصل؟»

لكنّه لم يرد سؤالها، فأعادته وأعادته وأعادته، وفي كلّ مرة كان يردّ على سؤالها بالصمت التام، حتى سألته:

- «عليّ»، ما بِكَ؟

- أنتِ بي.

هكذا أجابها بعد كل ذلك السكوت ثُمَّ قام وأمسك يدها يضرب بها صدره، هاتفًا:

- أنتِ بي يا «عاليا»، أنتِ بي.. أنتِ بي.. أنتِ بي...

توقفي عن التواجد هنا، بقلبي، بعقلي...

أفزعها بكلامه وفعله، عادت بظهرها للخلفِ في خوفٍ سائلة:

- ماذا جرى لكَ؟

- أنتِ من جرى.. ما دمتِ لن تبقي؛ فلمَ اقتربتِ؟!

ما دامت تلك خطتكِ؛ فلمَ وافقتِ عليَّ؟!

كنتِ اختاري شخصًا غيري واتركيني بقلبي على حاله.. يتمناكِ ولا يجدكِ، كان سيرضى بذلك الرفض ويقتل حبّه في صمت، لكنكِ فتحتِ الباب وسمحتِ بدخولي.. فقط لأجل أن تغلقيه ثانية وتطردينني منه! هل قلوب الناس وأرواحهم لُعبة عندكِ يا «عاليا»؟!

لا تدري من أين أتى كل هذا في نفسهِ لكنها لا تُنكر أن خطتها كانت ما يقول هو بالضبط، حاولت التحدث لكن الكلمات تقف على شفتيها لا تُغادر، لا تُفارق، تتعثر في خجلها وارتباكها، أكمل «عليّ»:

- شاهدتُ بنفسي مثالًا على ذلك الحبّ الذي أتمناه يا «عاليا»، ذلك الوفاء، ذلك العهد الذي يهمسه أحدهم بشفتيه وينفذه الآخر بدمه! ما أتمناه ليس غريبًا أو شاذًا، كلّ ما أتمناه أن تحبيني، أن تريديني أنا زوجًا وليس مجرد وسيله لتحقيق هدف....

قاطعته أخيرًا وقد تلبستها بعض القوة قائلة بخجلٍ:

- حاول أن تفهم، لم أظنّ أنّ وجود رجل مثلكَ.. زوج مثلك حقيقة، حبّكَ، قربكَ، ودّكَ، لستَ مثاليًا يا «عليّ» لكنكَ إنسان، وأنا لم أرَ في الخلقِ قبلك إنسانية!

نظر إليها باستنكارٍ مُعترضًا:

- إذًا.. أنتِ من يحتاج إعادة الرؤية.

- أو أن هناك بقايا إنسانية بالفعلِ في القلوب لكنّهم كانوا يُخفونها

من الحسدِ والعينِ؛ حتى جعلوني وغيري لم نعد نؤمن بشيء، لم نعد ننتظر منكم شيئا، أنتم فقط صخرة تقف لنا بالمرصاد في وسط الطريق.

انتبه لحديثها؛ فأكملت:

- طريق نجاح، تعليم، تقدّم، جمال، عبقرية، أيًا كان الطريق.. ما دام ليس على هواكم أيها الأزواج؛ فتكونوا كالإعصارِ، يدمّر كلّ شيء ولا يذر للمرأة بعده شيئا!

- ومن قال أن كل الرجال واحد؟ كما ليس كلّ النّساء واحداً!

- صدقتَ، وخاطرتُ أنا بفهمي المحدود هذا..

ولو أنّي كنتُ أعلم كيف هو..

لما غامرتُ بالسقوط فيكَ.

غلبتها عبرة من عينيها جعلت صوتها يتزلزل وهي تُكمل:

- إن كنتُ سمعتُ من شخصٍ واحد فقط.. كيف يكون..

ذلك المعنى المُرادف للفظِ «سكن»!؟

كيف هو ذاك التلاق؟

هذا الأمان الذي يتجلّى كأدفءِ ساعة من نهار!

علا بكاؤها؛ فارتجف قلبه، ما أدركت أثر حروفها عليه، ولا معنى ضعفها على روحه، أكملت:

- لو أنّ ابتسامة واحدة فقط رأيتها على شفتي امرأة متزوجة تبذلها في بداية اليوم؛ فتُخبرني أن قلبها الذي يسكن في الليل إلى

زوجها عامر بالحبِّ، أو كلمة حنين واحدة يلقيها رجل بعفويةٍ تُخبِر عن الشوق في قلبهِ، ثُمَّ علمتُ أنّه زوج وأبّ وحبيب؛ لكنتُ ءامنتُ حقًا أن «السكن» موجود، حقيقي، يقين، وليس مجرّد قصة قديمة يرويها لنا سكّير يترنّح على قارعة طريق!

لكنّي لم أسمع إلّا بطلاق فلانة وإساءة فلان، وضرب فلانة وبجاحة فلان، وسواد حياة فلانة وبخل فلان..... و.....

حتى كرهتُ الزواج والدنيا وكرهتُ أنني أنثى في أرضٍ يحكمها الإنسان!

يكاد يشعر بقلبه ينخلع في صدرهِ، صوتها، حديثها، بكاؤها، «السَكَن».. ذلك المعنى الذي شرحته بكلّ دقّة مما أكد في قلبه إيمانها، تخلخل ثباته وهو يحاول غض بصره عنها لكنّ قلبه لا يغضّ، همست له:

- بحقٍّ.. لم أكُن أنويكَ حبًّا، لكنّي هويتُ فيكَ قدرًا!

أخفى عينه عنها ووجهه وأهم ما حاول كتمه هو ذلك الدبيب الممتلئ نشوة والذي يكاد يخترق حجب الأفئدة من حولهِ ليصرخ.. «تلكَ الحمقاء حبيبتي».. تماسك بقدرِ ما استطاع من قوةٍ وهو يقوم من مكانهِ مُبديًا الانشغال بعملهِ ويسألها ببعض اهتمام:

- إذًا يا «عاليا».. ماذا أُحضر لكِ؟

أحزنها قيامه عنها وانشغاله، لكنّها أجابت سؤاله بما كان يبحث عنه وينتظره:

- أريد كيس سكّر..

وفرصة أخرى إذا سمحتَ.

***

«لم يمُت»

هكذا قال «مُدثِّر» وهو يمسح على شعرِ أخيهِ المُبتسم وكأنّ روحه لا زالت حيّة بداخله، ضمّ رأسه إلى صدره، قبّل جبهته، غلبته دموعه، لكنه تماسك سريعًا، الآن لا حزن، لا ألم، لا بُكاء، فـ «راشِد» رجلٌ سُدّت في وجهه منافذ الجهات كلّها إلّا جهة السّماء!

وكأنّه سمع النداء.. دعها؛ وسنأتيكَ بها؛ فأتاه بها الله!

غادر الغرفة مُتجهًا إلى الباب الخارجي، نادته مسئولة الدار تسأله.. «ماذا نفعل الآن؟»

أجاب.. «نُقيم العُرس»

تعجبت؛ فاقترب منها وأخذ نفسًا عظيمًا لكن ماء عينه فضح عورة وجعه وهو يتلعثم بقوله..

« نُكرم الأجساد والله يُكرم الأرواح «

ثُمَّ التفّ مُغادرًا.

انتبه أن هاتفه يحمل الكثير من الرسائل والتي جاءت إليه منذ دقائق.

فتحها وجدها كلّها رسائل مصورة من «وِصال» لأحاديث على

الواتس، ازداد فضوله.. حتى انفجر وهو يقرأ ويُصدم..

كلّما قرأ أكثر؛ اضطربَت روحه أكثر وتزلزل بنيانه، صور كثيرة، كلمات كثيرة، طلبات كثيرة، ثُمَّ اتفاق...!

الأمل، الحياة، السعادة، الحنين، الشوق، اللهفة، العذاب، الأنين، الوجع، الغضب، الثورة، الغلبة، الغفلة.....

كلّ هذا وجده في ترتيب عجيب وكلمات أكثر عجبًا، أكثر تأثيرًا..

«حياة واحدة لا تكفي»

«من خسر الألم؛ خسر كل شيئ»

«وأحنّ إليهمُ شوقًا.. وشوق البعيد لا ينتهي!»

«ألا رحمة الله على تلك اللهفة التي أسقطتني فلا قيامة أبدًا!»

«أترانى سأجد فوق هذا العذاب رحمة؟ أم أن مثلي انقضى حلو عذابه ولم يبقَ إلّا المرّ منه!؟»

«وما يوجعني إلا أنّ الموت يختار..

وكلّ مرة اختياره يقتل الأحياء.. ويُحيي الأموات في الصدور»

«أغضب من الهواء الذي يهرب من رئتي.. لمَ يُفارق ولم يُطل بعد المكوث؟!»

«وما ثورة الروح.. إلّا عشقٌ تجلّى ساعة بوحٍ للوطنِ»

«وهل يمكننا التغافل يومًا عن حقيقة انقسام قلوبنا في غياب من نُحب؟!»

«لِمَ لا نتفق..أن نكون أسياد حياتنا؟»

«لِمَ لا نتفق.. أن الحياة صارت كئيبة، غريبة، عجيبة.. ليست لنا؟!»

«لِمَ لا...

«لِمَ لا....

هُنالِكَ وعند آخر جملة؛ ذُهل «مُدثِّر» حتى هربت أنفاسه وهو يقرأ آخر ما توصلوا إليه جميعًا..

«اليوم عند نداء الليل لعتمته.. أن «هلُمّي»..

سنُقبل نحن كذلك على الدار الأُخرى؛ فتضيء بنا

سنختار الموت.. لن يختارنا هو

سنكون نحن الشمس الباقية.. لا الفانية»

وانتهى سيل الرسائل بعدما وجد عنوان اللقاء، شاطئ الغرام. الإسكندرية»!

هل ما قرأه صحيح أم أن عينيه تمارسان عليه خدعة متقنة، «وِصال» ذاهبة لتلاقي حتفها!

بعد عدة ساعات سيرفعها الموج كما يجرف الأعشاب والأسماك الميتة التي لا حول لها ولا قوة!

ما العمل؟

تاه الجواب بين الرغبة والمستحيل..

أرقل يجرّه الخوف ويدفعه الفزع حيث مسكنه، حيث صُحبة

كان يعرفهم منذ زمن، جيران له هم كلّ أهله..

كان مُنقطِعًا عن الجميع ولا أحد يعرف السبب، الآن يطلب منهم عونًا وهي عنده أعظم سبب!

لم يُطل الحكي والتبرير والإيضاح، فقط رأوا وجهه فعلموا أنّ الهمّ قد زار تلك الروح مرات ومرات،

قاموا إليه.. قاموا معه.. قاموا به.. يا الله!

هكذا يكون الرزق من أهل ومن جيران!

قطعت السيارة الطريق في نصف المدة الزمنية المسموح بها.. وكأنها تطير أسوة بقلبه الذي ينتفض داخل صدره، ما إن وصل إلى الشاطئ ولامست قدماه الرمال حتى رأى من بعيد في طوق بشري متماسك يدنو من أعماق البحر شيئا فشيئا، انتفض صارخا باسمها... «وِصاااااااال»

كاد قلبه أن يتمزق من فعل هتافه، يستصرخه الرحمة؛ لم يعبأ به، صرخ ثانية وثالثة ورابعة...

اندفع ومن معه من الشباب نحو الطوق البشري، لم يهدأ قلبه إلا عندما لم يجدها معهم، ثم عاد قلبه ينتفض خوفا..

أين هي؟ إن لم تكن معهم!

سحبوا الأربعة نحو الشاطئ، استنطقوهم باللين تارة والقسوة تارة حتى قالت إحداهن:

- «وِصال» ليست معنا، بقيت هُناك.

وأشار بيده إلى نقطة بعيدة على الشاطئ، طلب مِن مَن معه أن يراقبوهن لحين قدوم الشرطة، أمّا هو فقد أسرع حيث أشارت المرأة.

أمّا هي.. فقد جلست أرضًا وعقدت ذراعيها كالأطفال هامسة:

- أعتذر.

ناداها مَن فوقها..

- ابكي يا «وِصال».. ابكي كالأطفال؛ فلربما أغفر لكِ..

حرّكت كتفيها بارتعاش مُجيبة:

- لا أريد البكاء الآن.

صرخ بها غاضبًا:

- ابكي... هيا، ابكي.

وصل «مُدثِّر» أمامها، رآها جالسة على الأرضِ خاشعة ببصرها للأسفلِ، حرّكها من كتفها، لم ترد عليه، دفعها بيده من على الرِمال، فاعترضت صارخة..

- والله هو من يحرّكني.. ابتعد يا «مُدثِّر»، ابتعد.

انتبه «مُدثِّر» لجملتها التي تبرر بها وجوده، تلفّت حوله، لكنّها عادت لتقول بخوفٍ:

- لا، لستُ حبيبته، فقط أعرفه قليلًا..

توقّف «مُدثِّر» عن الحركة، نظر إليها بانتباه، احتال إلى فزعٍ

وهي تبكي صائحة:

- لا، لن أخلع، لن أقبل بذلك بعد اليوم، لم تعد زوجي.. لم تعد زوجي.

هنا فهِمَ «مُدثِّر» كلّ شيء، أمسكها من كتفها وهزّها بقوة صائحًا:

- ليس هنا.. هو ليس هنا، لا يوجد غيري.

ارتعشت بين يديه وهي تشير إلى نقطة خلفه هامسة:

- لا، «غالِب» هنا، خلفك تمامًا، اتركني رجاءً..

- لا لن أفعل.. لن أتركِكِ.

- هو خلفك.. اهرب بالله عليك، سيقتلك.

- دعيه يفعل.

جحظت عيناها وصرخت تحمي جسدها بيدها:

- يرفع عليكَ سلاحه.. اهرب.. اهرب..

التفّ «مُدثِّر» خلفه وهدر قائلًا:

- ليس هنا.. انظري بنفسك، انظري، هيا يا «غالِب».. اقتلني، هياااا.. افعل.

همست باكية:

- لا تقل هذا.. بالله لا تقل هذا.

عاد إليها ثانية وهو يصيح بها:

- بل سأقول، انظري جيدًا، لا أحد هنا، لا أحد غيري، هو ميت يا «وِصال».. ميت.

- ليس ميتًا.. هو هنا.

- ليس هنا ولم يكن أبدًا، هو ميت لكنّ خوفكِ منه لم يمت!

أخفَت وجهها بيدها وقد زادت رجفتها قائلة:

- لن يغفر لي.

- لا يملك أن يغفر أو لا يغفر.. هو ميت وسينال جزاءه من الله.

- ميت!

- نعم ميت منذ زمن، انظري.. لا أحد هنا....

حرّك يده في الهواء ليُثبت لها، أصابتها رعشة، ثُمَّ صرخَت بقوةٍ وفقدت الوعي.

***

كان مشهده عجيبًا..

فتى في الخامسة عشر من عمره، يُساق بقوةٍ ويجرّ جرًّا حيث تنتظره سيارة شرطة، فُتِح الباب واستقرّ هو بداخله، دفعه الضابط دفعًا ليرقد على بطنهِ ويصطدم وجهه بحاجز الباب، حاولت صحفية أن تسأله سؤالًا واحدًا.. أن تنال منه كلمة واحدة.. أيّ شيء، لكن منعها الضابط المسؤول عنه.

جلس الضابط بالسيارة ثُمَّ التفت إليه سائلًا بغضبٍ:

- لا تظنني صرفتُها لأجلِ أن تكون على حريتك.. لاا، بل صرفتُها لأنه لن ينال أحد إجابة منكَ غيري أيها الجاحد.

نظر الفتى إليه بغيظ أتبعه بابتسامة وهو يعود للخلفِ بظهره ويُغلِق عينيه باستمتاعٍ شديد وصوت صافرة السيارة يعلو ويعلو!

بجانب السيارة وقفت المُذيعة تتحدّث بتأثرٍ شديد مع الأربع نسوة تسألهم في استنكارٍ..

- لَمْ تشعروا أبدًا أنكن لعبة بيد أحدهم، تذهب بكنّ الكلمات صعودًا ونزولًا؟!

سكتن الأربعة وهنّ ينظرن لبعضهن في انهزام، فأكملت المُذيعة:

- ما انتبهتن أنّ وراء تلك الكلمات التي تقرأونها فخ يُعدّ لكنّ؟

لا زال الصمت هو سيد الحديث، فاعتدلت المُذيعة ونظرت إلى الكاميرة بثقةٍ شديدة وتحدثت بثقةٍ أكبر:

- وهنا سيداتي وسادتي تتجلّى حقيقة قبيحة المنظر، حينما ننظر لذلك الفخ الذي أعدّه فتى في الخامسة عشرة من عمره انتقامًا من نساء لا ذنب لهن غير أنهن تشابهن مع أمّه التي ظلمته يومًا وقد استخدم في ذلك جروبًا خاصًا بتقديم النصحِ والمشورى وتطبيق الواتس آب....

توقفت لتلتقط أنفاسها، ثُمَّ أكملت:

- تتبعت الشرطة الرسائل التي كانت ترد إلى هواتف النساء

المخدوعات حتى وصلوا إلى عنوانٍ؛ وتفاجأ الجميع أن الشخص الذي كان وراء كلّ تلك الرسائل والمنشورات.. ليس أكثر من مجرّد فتى في الخامسة عشرة من عمره وهو نفس الفتى الذي يقف الجميع لأجله حدادًا كلّ عام منذ عشر سنوات.

توقفت المُذيعة قليلًا وكأنها تترك مساحة للمشاهدين داخل منازلهم ليستوعبوا ما تقول، أكملت:

- نعم أيها السادة المشاهدون.. ذلك الفتى الذي غرق هو وأمه منذ عشر سنوات في يوم أحزن كل المصريين، لم تكن حقيقة الأمر إلّا أن الزوجة قد مات زوجها؛ ولمّا تفاقمت عليها الديون ولم تجد من يساعدها ويمد لها العون؛ قررت أن تضع حدًّا لحياتها وحياة ولدها والذي كان في الخامسة من عمرهِ، وعندما دخلا معًا إلى البحرِ واكتشف الفتى أنّ أمّه تقتله؛ قاومها واستطاع الإفلات منها.. وغرقت هي!

بكت قليلًا أو تباكت عندما وصلت لهذه النقطة في الحكايةِ، ظهر صوت النساء من خلفها نادماتٍ غاضباتٍ، فقالت المُذيعة:

- لم ينسَ ذلك الفتى ما فعلت أمّه، لذا.. قرر هذه الخطّة انتقامًا من أي امرأة يستطيع الوصول إليها ويكون مات زوجها، ثُمَّ مات طفلها وهو ما يراه تضييعًا لأمانتها؛ فيقيم هو عليها القصاص..... والآن أترككم مع الخبير الدولي ليُلقي علينا الضوء في هذا الشأن..

مرحبًا بكَ يا دكتور..

- مرحبًا بكِ سيدتي، ومرحبًا بالسادة المُشاهدين.
- هل بإمكانك إفادتنا في شأن هذه القضية المُحزنة التي بين أيدينا؟
- هذا الشان المُتناول حاليًا يؤلمني جدًا أن أُحذّر من أنّ تنامي شعبية الإنترنت ربما تؤدي إلى تزايد الاتفاق على تنفيذ عمليات الانتحار الجماعي!

كذلك أنوه أن ذلك قد يكون أول علامة على اتجاه متنامٍ..

أن شبكة الإنترنت توفر للناس سبيلًا للتعرف على أشخاص آخرين يتفقون على فكرة الانتحار ويدعمونها ويشجعونها!

وفيما بدا مؤخرًا أنّ هذه العمليات نظمها أشخاص لا يعرفون بعضهم جمعت بينهم شبكة الإنترنت وخططوا لقتل أنفسهم عبر مواقع خاصة بالانتحار على شبكة المعلومات الدولية.....

***

كانت «وِصال» صامتة، ربما صابرة، تتجلّد دون شكوى دون ملل، لطالما فعلت، لا عن قوةٍ أو شجاعة، بل عن نبتة أملٍ ضعيفة زُرِعَت يومًا داخل نفسها؛ فبقيت حيّة بفضلها.. فسبحان من وضع الزرع وأنبته!

أقبل «مُدثِّر» عليها، رآها وما ذهب عنها مرُّ الألمِ، ولا انطفأ في نفسها ذاك اللهب، لكنّها قد لبِست من الصبرِ ثوبًا فضفاضًا يحفظها

بداخله؛ فإذا رأيتها ما علمتَ أنّها تُخفي بصدرها كل ذلك الوهن، ولا أنّ بطيّات قلبها ندوبًا لا تزال قيد النزف!

قالت وهي مغمضة العينين:

- أحبّ أن أوضّح لكَ أمرًا...

فقاطعها قائلًا:

- أعلم كلّ الأمور.. فلا تُرهقي نفسك.

- لكنكَ لا تفهم... أنا لم أعد أصلح لأي شيء.

- بل أفهم أنكِ الصبر على كلّ شيء.

دُهِشت من قولهِ؛ فأضاف بجديةٍ:

- لنتفق.. ستعودين للطبيبة النفسية.

أكدت على قولهِ:

- وهذا ما سأفعل.. لكن أريد أولًا أن أحكِيَ لكَ أمرًا.

- «وِصال»..

- نعم..

- أنا معكِ.

- إلى متى؟

- إلى الأبدِ.

نظرت إليه بأملٍ يقطعه ضجيج من خوف؛ فأكمل بثقةٍ وكأنّما فُكّ قيد لسانه أخيرًا من عِقاله:

- والآن.. دعيني أحكِي لكِ عن تلك الرسائل التي وجدتُها يومًا بالخطأِ داخل جدار.

***

كان صوتُ الأطفال والشباب عاليًا، صاخبًا، فرحًا...

مرّت امرأة من أمام ذلك الصخب، ضحِكت وهي تُحدّث رفيقتها لتقبلا معًا حيث تعلو آيات الفرح..

ينظر الجميع بترقبٍ حيث جلست سيدة أرضًا ترسم على الأرض أشكالًا من فرسانٍ، ثُمَّ تحكي بيدها وتصنع ظلالًا عن معارك..

تقترب من أذن الأرض تهمس لها:

- ماذا نحكي للصبايا والرجال اليوم؟

يصرخ الأطفال...

أنا.. أنا.. أنا..

لازالت المرأة تستشير باطن الأرضِ:

- نحكي عن الوصال لمّا تدثّر بالأمل...

أم نحكي عن العاليا لمّا علَت بالسكن...

أم نحكي عن الوردِ الذي أضحى نصيبًا للرشاد..؟

ضحك الجميع من غرابة الحكايات، سأل أحدهم..

- من أين لكِ كلّ هذه القصص يا خالة؟

نظرت له بسعادة وأجابته وهي تُمسك بذرات الرمل أمامها ثُمَّ تتركها تنساب من بين أصابعها رويدًا رويدًا:

- من هُنا يا ولدي.. من هُنا؛ فالأرض كلّ مساءٍ تحكي لي..
- وعمَّ تحكي يا خالة؟
- عن فتاة اسمها «دليلة».
- وهل كلّهن نفس الاسم؟

نثرت الرمل من حولها وصنعت منه زهرة كبيرة وقالت:

-يا ولدي، كلّ القلوبِ في الحبِّ.. «دَلِيلَةُ».

والآن أخفضوا صوت ضحككم.. فزوجي «أبو الخير» لازال نائمًا.

تمت والحمد لله